حسرات على أحوال مصر وأهلها !!

التوحيد

إلى المتجرئين على الفتيا !!

منكرات تقع عند القبور !!



مجلة إسلامية • ثقافية • شهرية تصدر عن جماعة أنصار السنة المحمدية العدد ٤٩٧ - السنة الثانية والأربعون - جمادى الأولى ١٤٣١ هـ

الثمن جنيهان

الضوابط الشرعية للصكوك والأوراق المالية

السلام عليكم

السبيل الأقوم... أو الفشل والإفلاس

الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء وهداه إلى الطريقة التي يؤدي بها دوره في الحياة، وهداية الله تعالى للمخلوقات نوعان: هداية كونية لا دخل للبشر في تغييرها أو التأثير عليها؛ لأن الله لم يوكل إلى أحد تدبيرها ولا تصريفها، كهداية الشمس إلى الإضاءة وبعث الحرارة والدفء، والقمر للنور، وتعاقب الليل والنهار.

فاستقامت هذه المخلوقات على طريقتها على أكمل الوجوه وأحسنها، «صنع الله الذي أتقن كل شيء»، ولو كان للإنسان تدخل في شيء من ذلك لأفسده.

أما الهداية الأخرى التي تخص الإنسان والجن وهي الشرائع التي شرعها الله كتبًا وسنة، وللإنسان فيها اختيار، وكثيرًا ما يعترض عليها. لكن الله قضى ألا تستقيم حياة الإنس والجن إلا بهذه الهداية، وإلا ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيديهم.

وتوعد الله تعالى من يحيد عن هذه الهداية اتباعاً لهواه أو لأعداء الله؛ بأن يذيقه ضِعْف الحياة وضعف الممات، مع خسرانه نصرة رب الأرض والسماوات.

وعليه؛ فلكل من انغمس في العمل السياسي؛ إما أنك ترجو ما عند الله، فما عند الله لا يُنال إلا بطاعته وطريقته وهدايته، أو أنك ترجو ما عند الناس فتحتاج إلى أن ترضيهم ولو بسخط الله، فمن أرضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ولم يَنَلْ إلا الفشل والإفلاس، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

فاعلم أنه لا إله إلا الله

صاحبة الامتياز

جماعة أنصار السنة المحمدية

رئيس مجلس الإدارة

د.عبد الله شاكر الجنيدي

المشرف العام

د. عبد العظيم بدوي

اللجنة العلمية

جمال عبد الرحمن

معاوية محمد هيكل

التحرير

٨ شارع قولة عابدين. القاهرة

ت:٢٣٩٣٦٥١٧ . فاكس: ٢٣٩٣٠٦٦٢

البريد الإلكتروني

MGTAWHEED@HOTMAIL.COM

رئيس التحرير:

GSHATEM@HOTMAIL.COM

قسم التوزيع والاشتراكات

ت:٢٣٩٣٦٥١٧

ISHTRAK.TAWHEED@YAHOO.COM

المركز العام:

هاتف: ٢٣٩١٥٥٧٦-٢٣٩١٥٤٥٦

WWW.ANSARALSONNA.COM

بشرى سارة

تعلن إدارة المجلة عن رغبتها في تفعيل التواصل بينها وبين القراء في كل ما يتعلق بالأمور الشرعية لعرضها على لجنة الفتوى ونشرها بالمجلة على البريد الإلكتروني التالي: q.tawheed@yahoo.com

السنة الثانية والأربعون

العدد ٤٩٧ - جمادى الأولى ١٤٣٤

في هذا العدد

رئيس التحرير

جمال سعد حاتم

مدير التحرير الفني

حسين عطا القراط

سكرتير التحرير

مصطفى خليل أبو المعاطي



ثمن النسخة

مصر ٢٠٠ قرشاً، السعودية ٦ ريالات، الامارات ٦ درهم، الكويت ٥٠٠ فلس، المغرب دولار أمريكي، الاردن ٥٠٠ فلس، قطر ٦ ريالات، عمان نصف ريال عماني، أمريكا ٢ دولار، أوروبا ٢ يورو

الاشتراك السنوي

١- في الداخل ٣٠ جنيهاً بحوالة فورية باسم مجلة التوحيد. على مكتب بريد عابدين مع إرسال صورة الحوالة الفورية على فاكس مجلة التوحيد ومرفق بها الاسم والعنوان ورقم التليفون

٢- في الخارج ٢٥ دولاراً أو ١٠٠ ريال سعودى أو مايعادلهما.

ترسل القيمة بسويفت أو بحوالة بنكية أو شيك على بنك فيصل الاسلامى فرع القاهرة. باسم مجلة التوحيد. أنصار السنة «حساب رقم ١٩١٥٩٠/»

التوزيع الداخلي: مؤسسة الأهرام وفروع أنصار السنة المحمدية

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

افتتاحية العدد

كل بدعة ضلالة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة، والصلاة والسلام على من تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها سواء، وبعدُ:

فإن تكريم النبي صلى الله عليه وسلم وحبّه أمر واجب على كل مسلم لا مناص منه، والمحبة الصادقة تتمثل في اتباع هديه وسلوك طريقته، والسير على منهاجه صلى الله عليه وسلم.

وفي الشهر الماضي لاحظت وبشدة أمورًا كثيرة بعيدة عن الشرع، زعم القائمون بها أنهم يحبون النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك كالاحتفال بيوم مولده، وهو بدعة اخترعها العبيديون (المسمون زورًا الفاطميون)، مع ما يصاحب ذلك من قراءة الأناشيد والقصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، التي فيها من الغلو ما نهى عنه صلى الله عليه وسلم، وهم يزعمون بذلك أنهم من أصدق محبيه مع بُعد أعمالهم عن مظاهر الحب الحقيقي المتمثل في الاتباع- كما ذكرت-.

هل في الدين بدعة حسنة؟

وقد لفت نظري في هذا الموضوع: خروج بعض المنتسبين إلى العلم بفتوى أن الدين فيه بدعة حسنة وأخرى سيئة، وأن الموالد من البدعة الحسنة!! وهذا يخالف الصواب مما عليه أهل العلم من أهل السنة والجماعة، أصحاب الأثر والاتباع، وبهذا سأبين الحق في هذا الباب، وأن البدع كلها سيئة وضلال.

تعريف البدعة:

والبدعة كما يقول الشاطبي رحمه الله: «عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه».

وقال ابن تيمية: «البدعة: ما خالفت الكتاب والسنة أو إجماع سلف الأمة من الاعتقادات والعبادات». [مجموع الفتاوى ج٨/ص٣٤٦].

فالبدعة إذن: فعل ما تركه النبي صلى الله عليه وسلم قاصدًا تركه، مع قيام الداعي إلى فعله.

ومن الأمثلة على ذلك: إضافة ألفاظ للأذان، حتى لو كانت أذكارًا مستحبة عمومًا، كإضافة التسبيح والتحميد، أو إضافة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم جهرًا بعد الأذان، فإن النبي صلى الله عليه وسلم ترك ذلك، مع وجود الداعي إلى فعله، والداعي هنا أن هذه الأذكار مستحبة، والنبي صلى الله عليه وسلم أسرع الخلق لما يُرضي الله تبارك وتعالى، فبتركه لذلك علمنا أنه غير تعبدي، وأن فعل ذلك يصدق عليه أنه إحداث في الدين.

ومنها: استحداث أعياد لم يأتِ بها الشرع، فمسألة الأعياد من المسائل الشرعية التعبدية التي لا يجوز الابتداع فيها، ولا الزيادة ولا النقص، فلا يجوز

إحداث أعياد غير ما شرعه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، سواء سُمِّي عيدًا أو غير ذلك، فإن كل اجتماع يحدثه الناس ويعتادونه في زمان معين أو مكان معين، أو هما معًا - فإنه عيدٌ، ومن ذلك الاحتفال بمولده صلى الله عليه وسلم فإنه تركه مع إمكان فعله في زمنه، وقد تكرر عليه زمان مولده منذ بعثته ثلاثًا وعشرين مرة، في ثلاث وعشرين سنة- مدة رسالته - صلى الله عليه وسلم، ومع هذا لم يحتفل بمولده ولا مرة واحدة، ولم يكن أحد يحب النبي صلى الله عليه وسلم كما يحب الصحابة النبي- عليه الصلاة والسلام-، ومع ذلك لم يشرع لهم الاحتفال بمولده، فدل ذلك على أنه قصد هذا الترك، وأن فعله بدعة، فكما شرع لهم التعبد لله تعالى بتعظيم عيدي الأضحى والفطر ويوم الجمعة، شرع لهم أيضًا ترك التعبد بتعظيم يوم الثاني عشر من ربيع الأول وتخصيصه بشيء من العبادات، فالواجب اتباع هديه في الأمرين، في الفعل والترك، وهذا من تمام التأسي به صلى الله عليه وسلم، كما قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ذم البدع والمحدثات في الدين:

وقد وردت أدلة كثيرة صحيحة بذم البدع مطلقًا، ولم تقسم البدع إلى بدع حسنة مستحبة، وإلى بدع سيئة مكروهة، فذم البدع والمحدثات في الدين عامّ لا يخص محدثة دون محدثة، والأدلة الشرعية تدل على هذا العموم منها: قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبه: «أما بعدُ: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثات، وكل بدعة ضلالة». [مسلم: ٨٦٧].

وجه الاستدلال من هذا الحديث أنه نص على أن البدع كلها ضلالة بلا استثناء، لأن «كل» من أقوى صيغ العموم، ولا يحتمل في هذا الحكم التخصيص فيخرج بعض البدع عن هذا الوصف، وذلك لورود التعميم في أحاديث أخرى، ولم يرد في حديث منها ما يخصص ذلك العموم، قال الحافظ ابن حجر: «قوله: «كل بدعة ضلالة» قاعدة شرعية كلية بمنطوقها ومفهومها، أما منطوقها فكأن يقال: حكم كذا بدعة، وكل بدعة ضلالة، فلا تكون من الشرع؛ لأن الشرع كله هدى، فإن ثبت أن الحكم المذكور بدعة صحت المقدمتان وأنتجتا المطلوب». [فتح الباري ج١٣/٢٦٧- ٢٦٨].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإن شر الأمور محدثاتها، وإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة): نص من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يحل لأحد أن يدفع في دلالته على ذم البدع، ومن نازع في دلالته فهو مراغم».

وقال أيضا: «لا يحل لأحد أن يقابل هذه الكلمة الجامعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلية، وهي قوله: «كل بدعة ضلالة» بسلب عمومها، وهو أن يقال: ليست كل بدعة ضلالة، فإن هذا إلى مشاقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب منه إلى التأويل». [اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٧١، ٢٧٤].

وقال ابن رجب: «فقوله صلى الله عليه وسلم: (كل بدعة ضلالة) من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله: (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد) [متفق عليه]، فكل من أحدث شيئًا ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات، أو الأعمال، أو الأقوال الظاهرة والباطنة، وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع، فإنما ذلك في البدع اللغوية». [جامع العلوم والحكم (٢٦٦)].

والحديث الذي أشار إليه الشاطبي في كلامه السابق هو ما جاء في البخاري بلفظ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد». [صحيح البخاري ح٢٦٩٧]. وفي رواية مسلم: «من عمل عملاً ليس

وردت أدلة كثيرة صحيحة بذم البدع مطلقًا، ولم تقسم البدع إلى بدع حسنة مستحبة، وإلى بدع سيئة مكروهة.

عليه أمرنا فهو رد». وقد دل الحديث على أن من أحدث في الدين شيئًا، وليس له أصل في الشرع يدل عليه فهو باطل ومردود على صاحبه، وقوله صلى الله عليه وسلم: «عملاً» نكرة في سياق الشرط، فتعم أي عمل لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم والبدع التي استحسنها البعض لم يفعلها النبي صلى الله عليه وسلم، وما دام النبي صلى الله عليه وسلم لم يفعلها فهي مردودة على صاحبها غير مقبولة، ففعل هذه البدع عبث وتضييع للوقت فيما لا يفيد، ومن يقول بالتخصيص فليأت بنص صريح صحيح يخرج بعض البدع عن هذا الحكم.

قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام:

قال النووي: «هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم، فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات، وفي الرواية الثانية زيادة، وهي أنه قد يُعاب على بعض الفاعلين في بدعة سُبق إليها، فإذا احتج عليه بالرواية الأولى يقول: أنا ما أحدثت شيئًا فيُحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات، سواء أحدثها الفاعل، أو سُبق بإحداثها، وهذا الحديث مما ينبغي حفظه، واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به». [شرح النووي على مسلم ج١٢/١٦].

وقال الشاطبي: «هذه الأحاديث جاءت مطلقة عامة على كثرتها، لم يقع فيها استثناء ألبتة، ولم يأت فيها شيء مما يقتضي أن فيها ما هو هدى، ولا جاء فيها: كل بدعة ضلالة إلا كذا وكذا، ولا شيء من هذه المعاني، فلو كان هناك محدثة يقتضي النظر الشرعي فيها الاستحسان أو أنها لاحقة بالمشروعات، لذكر ذلك في آية أو حديث، فدل على أن تلك الأدلة، بأسرها على حقيقة ظاهرها من الكلية التي لا يتخلف عن مقتضاها فرد من الأفراد». [الاعتصام ج١/١١٠].

لا دين إلا ما شرعه الله:

وعليه فمن ابتدع عبادة من عنده – كائنا من كان– فهي ضلالة ترد عليه؛ لأن الله وحده هو صاحب الحق في إنشاء العبادات التي يتقرب بها إليه، يقول ابن القيم – رحمه الله–: «ومعلوم أنه لا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا تأثيم إلا ما أثم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم به فاعله، كما أنه لا واجب إلا ما أوجبه الله، ولا حرام إلا ما حرمه الله، ولا دين إلا ما شرعه الله». [إعلام الموقعين ١/٣٤٤].

وعلى هذا جرى السلف الصالح من الصحابة والتابعين:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قبّل الحجر الأسود: «إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك». [البخاري ح١٥٩٧].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «لو كان الدين بالرأي، لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح على ظاهر الخف».

> **فمن ابتدع عبادة من عنده – كائنا من كان- فهي ضلالة ترد عليه؛ لأن الله وحده هو صاحب الحق في إنشاء العبادات التي يتقرب بها إليه.**

سلاح قوي على المبتدعة:

وعن سعيد بن المسيب رحمه الله: «أنه رأى رجلاً يصلي بعد طلوع الفجر أكثر من ركعتين، يكثر فيهما الركوع والسجود فنهاه، فقال: يا أبا محمد يعذبني الله على الصلاة؟! قال: لا، ولكن يعذبك على خلاف السنة». [السنن الكبرى للبيهقي ج٢/٤٦٦].

قال الألباني رحمه الله معلقًا على هذا الحديث: «وهذا من بدائع أجوبة سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى، وهو سلاح قوي على المبتدعة الذين يستحسنون كثيرًا من البدع باسم أنها ذكر وصلاة، ثم ينكرون على أهل السنة إنكار ذلك عليهم، ويتهمونهم بأنهم ينكرون الذكر والصلاة، وهم في الحقيقة إنما ينكرون خلافهم للسنة في الذكر والصلاة ونحو ذلك». [إرواء الغليل ٢/٢٣٦].

حجة قاهرة ودليل عظيم:

ونحن ندين لله تعالى بأنه أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة كما قال تعالى: (ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا) [المائدة: ٣]، فالشريعة بعد هذا البيان لا تحتاج إلى زيادة أو نقصان، ولسان حال المبتدع أن الشريعة لم تتم، لأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها في زعمه، ولو كان معتقدًا لكمالها وتمامها من كل وجه لم يبتدع ولم يستدرك عليها، واعتقاد هذا ضلال مبين، قال الشوكاني رحمه الله مناقشًا بعض المبتدعين ومحتجًا عليهم بهذه الآية: «فإن كان الله قد أكمل دينه قبل أن يقبض نبيه صلى الله عليه وسلم، فما هذا الرأي الذي أحدثه أهله بعد أن أكمل الله دينه؟ إن كان من الدين في اعتقادهم فهو لم يكمل عندهم إلا برأيهم، وهذا فيه ردّ للقرآن، وإن لم يكن من الدين، فأي فائدة في الاشتغال بما ليس من الدين؟ وهذه حجة قاهرة ودليل عظيم لا يمكن لصاحب الرأي أن يدفعه بدافع أبدًا، فاجعل هذه الآية الشريفة أول ما تصك به وجوه أهل الرأي، وترغم به أنوفهم، وتدحض به حججهم». [القول المفيد: ٢٣٨].

لسان حال المبتدع أن الشريعة لم تتم، لأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها في زعمه.

لوازم القول بالبدعة الحسنة:

ويلزم من القول بالبدعة الحسنة لوازم سيئة:

أحدها: أن تكون هذه البدعة المستحبة -حسب زعمهم- من الدين الذي أكمله الله لعباده ورضيه لهم، وهذا معلوم البطلان بالضرورة؛ لأن الله تعالى لم يأمر عباده بتلك البدع، ولم يأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يفعلها ولا فعلها أحد من الصحابة ولا التابعين، ومن تبعهم بإحسان، وعلى هذا فمن زعم أنه توجد بدع حسنة في الدين فقد قال على الله وعلى كتابه وعلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بغير علم.

الثاني: أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد تركوا العمل بسنن حسنة مباركة محمودة، وهذا مما ينزّه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه - رضوان الله عليهم-.

الثالث: أن يكون القائمون بالبدع الحسنة المزعومة قد حصل لهم العمل بسنة حسنة مباركة محمودة لم تحصل للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لأصحابه، وهذا لا يقوله من له أدنى مسكة من عقل ودين. قال الشاطبي رحمه الله: «إن تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة وإجراء الأحكام الخمسة عليها، هذا التقسيم أمر مخترع لا يدل عليه دليل شرعي، لا من نصوص الشرع، ولا من قواعده؛ إذ لو كان هناك ما يدل من الشرع على وجوب أو ندبٍ أو إباحة، لما كان ثمَّ بدعة، ولكان العمل داخلاً في عموم الأعمال المأمور بها، أو المخير فيها، فالجمع بين عدّ تلك الأشياء بدعًا وبين كون الأدلة تدل على وجوبها أو ندبها أو إباحتها جمعُ بين متناقضين». [الاعتصام: ج١/٢٤١].

ما الضابط في تحسين البدع؟ ومن المرجع فيه؟

وختامًا أقول:

إن القول بالبدعة الحسنة يفتح باب الابتداع على مصراعيه، ولا يمكن معه رد أيِّ بدعة؛ لأن كل صاحب بدعة سيدعي أن بدعته حسنة، فما الضابط في تحسين البدع؟ ومن المرجع فيه؟

إن قيل: الضابط موافقة الشرع. قلنا: ما وافق الشرع ليس ببدعة أصلاً، وإن قيل: المرجع العقل. قلنا: العقول متفاوتة ومختلفة متباينة، فإلى أي عقل نحتكم؟ وأيها المرجع في ذلك؟ وأيها يقبل حكمه؟ وكل صاحب بدعة يزعم أن بدعته حسنة عقلاً، فلا مخرج إذًا إلا في الالتزام بالكتاب والسنة، وترك البدع والتصدي للمبتدعة، وللقائلين بالبدعة الحسنة شبهات يستندون إليها سأناقشهم فيها في العدد القادم - بإذن الله-.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

كلمة التحرير

حسرات على أحوال مصر وأهلها!!

بقلم
رئيس التحرير
جمال سعد حاتم
GSHATEM@HOTMAIL.COM
GSHATEM@HYAHOO.COM

الحمد لله المستحق للحمد والثناء، له الخلق والأمر، يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء.. وبعدُ:

فإن العَجَبُ لمن يأنس بالدنيا وهو مفارقها، وكيف يأمَن النارَ من هو واردُها، يلهو من يقودُه عمره إلى أجله، ويغفل من أنفاسه تخطو به إلى مصيره، بقاؤه قائده إلى فنائه، وصحَّته تسوقه إلى سقمه، وما يُؤتى الحذرُ إلاّ من مأمنه. فالجدَّ الجدَّ -رحمكم الله- قبل حلول المنايا، والتوبة التوبة من الذنوب والخطايا، وصدق الله: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » [فاطر: ٥- ٦].

وإن الإنسان ليعجب عندما ينظر إلى أحوال مصر، وما يحدث فيها، يجد أن الناس قد اختلفت آراؤهم، وتعددت توجهاتهم، وكثرت نقاشاتهم حول قيمة الحياة الدنيا، حتى اعتبرها كثيرٌ منهم غاية لهم، وحكمُ الإسلام في فصل الخطاب، فالحياة في نظر الإسلام أهم من أن تُنسَى، ولكنها في الوقت نفسه أتفه من أن تكون غاية قال تعالى: « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ » [القصص: ٧٧].

يا حسرة على من ماتت ضمائرهم! وختم الله على قلوبهم! ففرّطوا في مصر، هانت عليهم الدماء، استحلوا كل الممنوعات والمحظورات.. انتهكوا الحرُمات، يحاولون نشر الفساد والدمار، والخراب والفوضى في كل مكان، يا حسرة على أهل مصر! فما تستحق منهم مصر هذه التصرفات القبيحة.

التسابق في حرق مصر.. والله خيرٌ حافظ

إن الناظر بعين العطف والشفقة على مصر وأهلها، يجد أشباحًا في الشوارع فالطباع متغايرة، والأمن مُفتقَد، وردود الأفعال الظاهرة من الحكومة هزيلة ومترددة، وأمن مصر كله مستهدَف؛ فكسر وزارة الداخلية، وتحطيم معنويات أفرادها أصبح هدفًا، حتى تعم الفوضى، وتنتشر في الظلام الدامس أشباح تستحل كل مُحرَّم، تحرق وتدمر، تقطع الطرق وتخرب المنشآت، تغتصب بلا نخوة ولا وازع من دين أو ضمير، إنها البلطجة الوقحة لأناس يُحْسَبُون علينا أنهم من بني جلدتنا، والله بهم عليم.

أصبحت الغلظة والقسوة، والتجرد من الرحمة، سمة بعض من تجدهم على الطرقات، وفي الأزقة، وفي قلب المدن، ليلاً ونهارًا يستبيحون كل شيء، بخسة ونذالة، وتجرد من كل أساليب البشر أفرادًا كانوا أو جماعات.

يحدث كل هذا والحكومة مُغيبة ووزارة الداخلية تنهار يومًا بعد يوم، بتقصير من بعض قياداتها، ومن بعض مَن لا يريدون لمصر خيرًا، فراحوا يمزقون رجال الشرطة

ويحطّمونهم نفسيًا وبدنيًا، مع أنهم إخواننا، وأبناؤنا، وبدلاً من ذلك لابد من وضع الخطط والسياسات الحكيمة الرشيدة لتنقية هذا الجهاز وإعادة هيكلته، وإعطائه الصلاحيات للقيام بمهامه كجهاز يراعي المصالح الوطنية لمصر وأهلها، بعيدًا عن الانتماءات الحزبية والمصالح الضيقة، وإعادة الثقة في أفراده كي يتحملوا المسئولية، ويلتحموا بالشعب مرة ثانية، لنزع فتيل العداء بين الشرطة والشعب.

راح أعداء الوطن يتكالبون على رجال الشرطة كما يتداعى الأكلة إلى قصعتها، فبدأ الضجر والضيق والإحباط يسيطر عليهم، بينما الأحزاب الموجودة على الساحة المتناحرة لا يعنيها إلا البحث عن السلطة حتى لو كان ذلك على حساب مصر وأهلها.

إن الأحداث التي وقعت في مصر منذ ٢٥ يناير ٢٠١١م وحتى الآن أظهرت أسوأ ما فينا من أخلاق، فالناس كانوا يخافون السلطان والقهر، والسجن والإيذاء، ولما كسر حاجز الخوف ظهرت حقيقتهم، فلم يعودوا يخافون من سلطان، وقل فيهم من يخاف الله..

فهل يخاف اللهَ مَن يسفك الدماء؟! ومن يثير الهلع والخوف في نفوس الناس؟!

هل يخاف الله من يقطع الطرق ويوقف حالة السير فتنقطع مصالح العباد وسعيهم على أقواتهم؟!

هل يخاف الله من يتصارع على سلطة زائلة، ولو كان ذلك على حساب هذا الشعب المقهور؟!

خسائر المليونيات ومحاولة إغراق السفينة

وحزنًا وألمًا على ما يحدث لمصر وشعبها، فإننا ننوّه إلى خلاصة تقرير لخبراء اقتصاديين مصريين وأوروبيين، مفاده التحذير من استمرار المليونيات والإضرابات، والوقفات الاحتجاجية، وقطع الطرق وشل المواصلات، مشيرًا إلى أن تلك المنغّصات كلفت مصر خسائر ضربت اقتصادها في مقتل، بلغت حتى الآن ما يزيد على ٣٢٠ مليار جنيه مصري، نتيجة توقف عجلة الإنتاج، وإغلاق أكثر من ٤٥٥٠ مصنعًا، وتدني دخل السياحة الذي بلغ في عام ٢٠١١م نحو ١٢،٨ مليار دولار؛ حيث تم إلغاء ٨٥٪ من حجوزات العام الحالي، كما تراجعت الاستثمارات الأجنبية التي كانت ١٤،١ مليار دولار في عام ٢٠٠٨م إلى أدنى مستوياتها في العام الحالي، لتصبح مصر بذلك دولة طاردة للاستثمارات.

> **استمرارًا للمؤامرات على مصر للنيل منها ومن شعبها تخرج علينا الصحف الإسرائيلية كاشفة عن مخطط لضرب قناة السويس اقتصاديًا، عن طريق مد خطوط سكك حديدية تربط البحر الأحمر بالأبيض المتوسط.**

وأوضح التقرير -كما جاء على لسان الخبير الاقتصادي دكتور رشاد عبده، رئيس المنتدى المصري للدراسات الاقتصادية والاستراتيجية- أن المليونيات والوقفات والاعتصامات زاد عددها منذ ٢٥ يناير ٢٠١١م إلى ما يزيد على مائة مليونية مما فاقم من معاناة شعب مصر كله!!

إسرائيل تهدد قناة السويس لضرب اقتصاد مصر

استمرارًا للمؤامرات على مصر للنيل منها ومن شعبها تخرج علينا الصحف الإسرائيلية كاشفة عن مخطط لرئيس الحكومة الصهيونية «بنيامين نتنياهو» لضرب قناة السويس اقتصاديًا، وتهديد أهم مصادر دخلنا القومي، وذلك عبر منافستها عن طريق مد خطوط سكك حديدية تربط المدن الساحلية المطلة على البحر المتوسط - حيفا، وأسدود- بمدينة إيلات المطلة على البحر الأحمر، وأن إسرائيل -حسب تقرير الصحيفة الإسرائيلية- سوف تنفق عشرات المليارات لنقل البضائع بين البحرين الأحمر والمتوسط في مدة لا تزيد على ساعتين فقط؛ فيما يُعتبر أقل وقتًا عن نقل البضائع عبر قناة السويس!!

ونشرت الصحيفة الإسرائيلية خرائط توضح خط سير القطار الجديد من إيلات إلى مدن البحر المتوسط، وذكرت أن المشروع تم تخصيص ٣٠ مليار دولار كميزانية مقدرة لتنفيذه لتصل أرباحه إلى ١٠٠ مليار دولار.

كما أشار التقرير إلى أن إسرائيل تنوي أيضًا

في تبجح غريب يطالب المرشد الإيراني علي خامنئي الرئيس محمد مرسي بتبني النموذج الإيـــراني ، في شكل خطاب مرسل يتحدث فيه بفخر عن إيـــران وقـد أصبحت -تحت ولاية الفقيه- واحدة من أكثر الدول في العالم تقدمًا !!

إنشاء مطار دوليّ على طراز عالمي في إيلات؛ ليخدم المدينة الساحلية، ولتنشيط السياحة بها، وذلك لتكون مدينة سياحية نموذجية على غرار مدينة شرم الشيخ، لتجذب الأضواء منها!!

يأتي ذلك التقرير في الوقت الذي تحاول فيه قوى وفصائل كثيرة الزجّ بالقوات المسلحة حامية أمن مصر ودرعها الواقي في العملية السياسية مرة أخرى؛ حتى تنشغل عن مهامها الأساسية بالحفاظ على الأمن القومي لمصر وحدودها.

مرشد إيران .. وكشف الوجه اللئيم !!

وفي تطور غريب واتساقًا مع ما يحدث في مصر، وما يقع فيها من فتن ومؤامرات ضد شعبها السني، يطالب المرشد الإيراني علي خامنئي الرئيس محمد مرسي بتبني النموذج الإيراني، والانضمام إلى طهران في بناء الحضارة الإسلامية الجديدة!! وجاءت دعوة خامنئي في شكل خطاب تحدث عن إيران وقد أصبحت -تحت ولاية الفقيه- واحدة من أكثر الدول في العالم تقدمًا.

ويَعِدُ الخطابُ بأن المفكرين الإسلاميين الإيرانيين على استعداد لتقديم قدراتهم العلمية المتاحة للحكومة المصرية وشعب مصر العظيم لتتقدم مصر داخليًا وخارجيًا!!

ووجّه الخطاب الحديث للدكتور مرسي قائلاً: «نظرًا لأنك تتمتع بقدر كبير وعميق من الإيمان والفلسفة والفكر، ولأنك على رأس دولة قد ورثت الحضارة الإسلامية، فإننا نحثكم على أن تقيموا حكومتكم بناءً على الإسلام فقط، ويتعين عليكم أن تتجاهلوا الضغوط الدولية، وتأثير ما يُسمى بالمثقفين الذين يبحثون عن فصل الدين عن السياسة.

وخطاب خامنئي ومستشاريه لا يُقابل من مصر -حكومة وشعبًا- إلا بالرفض الشديد للنظام الإيراني الذي يكشف عن أغراضه الخبيثة بمحاولته الدءوبة لنشر المد الشيعي إلى مصر ودول الخليج العربي، فإن مصر ستبقى بإذن الله -تحت قيادة الأزهر الشريف- حصنًا منيعًا، وصخرة للإسلام السُني تنكسر عليها كل محاولات التشيع وإن أبى الشيعة الروافض!!

هل سيناء للفلسطينيين كما يزعمون؟

وفي شأن آخر هناك مؤامرة تحاك ضد مصر وشعبها، ولم يكن الأمر مجرد مصادفة أو خطأ غير مقصود، بل كانت خطوة مسبقة من الحكومة الإسرائيلية لترسيخ الفكرة وتحويلها إلى واقع يتسق مع المخططات التي عبرت عنها الأدبيات الإسرائيلية، وتصريحات كبار المسئولين في الكيان الصهيوني.

ففي وقت سابق كان الإسرائيليون يكتبون على تصاريح القادمين من غزة في خانة دولة الميلاد «غزة»، أما الآن ومنذ مدة ليست بالبعيدة، وتحديدًا بعد اتفاق الهدنة الموقَّع بين حماس والحكومة الإسرائيلية، أصبح يُكتب في خانة دولة الميلاد للزائرين من «غزة وسيناء»!! وإسرائيل إذ تفعل ذلك تنطلق من مصالحها الخاصة دون تدخل من الفلسطينيين، لتكشف عن سلسلة جديدة من المؤامرات التي تدبرها إسرائيل ضد مصر وتشارك فيها أياد أجنبية.

وإن ما قامت به إسرائيل مؤخرًا من اعتبار «غزة وسيناء» كيانًا واحدًا، يتم التعامل معه من خلال الأوراق الرسمية، لم يكن من قبيل المصادفة أو الخطأ، بل هي البداية الحقيقية للزحف على سيناء، وحل المشكلة الفلسطينية بعيدًا عن إسرائيل الكبرى!! أو هكذا يدبرون ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

ألا من معتبر !! أفلا تعودون إلى رُشدكم !!

فيا أهل مصر، لا بد من وقفة صادقة مع النفس في محاسبة جادة، ومساءلة دقيقة، فوالله لتموتنَّ كما تنامون، ولتُبعثن كما تستيقظون، ولتجزون بما كنتم تعملون.

أفلا من معتبر بما طوت الأيام من صحائف الماضيين؟! وقلبت الليالي من سجلات السابقين؟! وما أذهبت المنايا من أماني المسرفين؟ كل نفس من أنفاس العُمر معدود، وإضاعة العمر ليس بعده خسارة في الوجود ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وليتذكر أهل مصر أن يد المنون تتخطف الأرواح من أجسادها، تتخطفها وهي راقدة في منامها، تعاجلها وهي تمشي في طرقاتها، تقبضها وهي مُكبَّة على أعمالها، تتخطفها وتعاجلها من غير إنذار أو إشعار، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ويل للأغرار المفترين، يأمنون الدنيا وهي غرّارة!! ويثقون بها وهي مكّارة!! فارقهم ما يحبون، ورأوا ما يكرهون، وحِيل بينهم وبين ما يشتهون، ثم جاءهم ما يوعدون، فما أغنى عنهم ما كانوا يُمتّعون!!

إنها الدنيا لا تدوم على حال، تُبكي ضاحكًا، وتُضحك باكيًا، وتُخيف آمنًا، وتُؤمِن خائفًا، وتُفقر غنيًا، وتُغني فقيرًا، تتقلب بأهلها لا تُبقي أحدًا على حال، العيش والسرور فيها لا يدوم، تُغير صفاءها الآفاتُ، وتنوبها الفجيعاتُ، وتفجع فيها الرزايا، وتسوق أهلها المنايا، قد تنكّرت معالمها، وانهارت عوالمها.

أيها المصريون! تذكروا قول الفضيل بن عياض رحمه الله حيث يقول: من عَرف أنه عَبْدٌ لله راجعٌ إليه، فليعلم أنه موقوفٌ بين يديه، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول فليعدَّ لكل سؤال جوابًا.

قيل: يرحمك الله، فما الحيلة؟

قال: يسيرة، تُحسنُ فيما بقي يُغفر لك ما مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخذت بما مضى وما بقي.

هذه وقفة اعتبار بأحوال مصر وأهلها، وهذه وقفة محاسبة مع النفس، بل مع أعز شيء في النفس، مع ما بصلاحه صلاح العبد كله، وما بفساده فساد الحال كله، وقفة مع ما هو أولى بالمحاسبة والاعتبار بما فات، وأحرى بالوقفات الصادقة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ». [أخرجه البخاري: ٢٨٥٢].

إنها الدنيا لا تدوم على حال، تُبكي ضاحكًا، وتُضحك باكيًا، وتُخيف آمنًا، وتُؤمن خائفًا، وتُفقر غنيًا، وتُغني فقيرًا، العيش والسرور فيها لا يدوم، تفجع فيها الرزايا، وتسوق أهلها المنايا !!

ويقول صلى الله عليه وسلم: «لا يستقيم إيمان عبدٍ حتى يستقيم قلبُه». [أخرجه أحمد].

ويقول الإمام الحسن البصري رحمه الله: «إنما هما هَمَّان يجولان في القلب؛ همٌّ من الله تعالى، وهمٌّ من العدو، فرحم الله عبدًا وقف عند همِّه؛ فما كان من الله تعالى أمضاه، وما كان من عدوه جاهده وتوقاه».

وختامًا:

يا أهل مصر إن الدنيا وسيلة وليست غاية، وإن العباد إنما خُلقوا لغاية عظمى هي عبادة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧] فلا ينبغي للعاقل أن يجعل الوسيلة في مقام الغاية، وليعط كل شيء وزنه وحجمه، لئلا يهلك وهو يحسب أنه يحسن صنعًا، ويردد خلف المصطفى صلى الله عليه وسلم راجيًا ربه سبحانه ويدعوه أن «لا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا» [الترمذي ٣٥٠٢ وحسنه الألباني].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



باب التفسير

تفسير سورة الزمر

الحلقة الثامنة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

« وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾»

[الزمر: ٥٤ – ٦٤].

بادروا بالتوبة قبل أن يُغلق بابُها:

فلا يأس ولا قنوط، ولكنْ المبادرة المبادرةَ، واغتنامَ الفرصة والبابُ مفتوح؛ لأنه سيأتي على باب التوبة ساعة يُغلق فيها، وهذه الساعة ساعتان: ساعة خاصة، وساعة عامة، فأما الخاصة فهي ساعة الغرغرة، فإذا بلغت الروحُ الحلقوم، وغرغر الميت أُغْلِقَ في وجهه باب التوبة، فعن ابن عمر: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» [سنن الترمذي ح٣٥٣٧ وحسنه الألباني].

ولذلك قال الله تعالى: « إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ

يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » [النساء: ١٧- ١٨]، وقال تعالى: «وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ » [يونس: ٩٠- ٩٢]، وقال تعالى: «فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ » [غافر: ٨٤- ٨٥].

وأما الساعة العامة التي يُغلق فيها باب التوبة فهي آخر الدنيا، حين تطلع الشمس من مغربها، كما قال تعالى: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ » [الأنعام: ١٥٨]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، وَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا، ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ [صحيح البخاري ح٤٦٣٦].

لذلك حثَّ اللهُ تعالى عباده على المبادرة بالتوبة، فقال بعد أن نهى عن القنوط من رحمته:

«وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ»، فمن استجاب وأناب فقد فاز ونجا، ومن غرَّتْهُ الحياة الدنيا، وَغَرَّهُ طولُ الأمل، ولم يَفِقْ إلا في سكرات الموت، فسيندم أشدَّ الندم، ولن ينفعه الندم، ولذلك قال الله تعالى مُعَلِّلًا الأمر بالمبادرة: «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ» أي بادروا بالتوبة والإنابة، والإسلام والاتباع والإحسان؛ لئلا تقول نفسٌ فرَّطَتْ وقَصَّرَتْ إذا جاءها الموتُ بغتةً: «يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ»، فلم يكفه أن يُقَصِّرَ في حق الله، ويُفَرِّطَ في طاعته، حتى كان يسخر من الذين يُطيعون اللهَ ويدعونه خوفًا وطمعًا، كما قال تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ » [المطففين: ٢٩- ٣٣].

«أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ».

وحاصل الكلام أن هذا المُقَصِّرَ أتى بثلاثة أشياء:

أوَّلها: الحسرة على التفريط في الطاعة.

وثانيها: التَّعَلُّلُ بفقد الهداية.

وثالثها: تَمَنِّي الرجعة.

ثم أجاب اللهُ تعالى عن كلامهم بأن قال: التَّعَلل بفقد الهداية باطل؛ لأنَّ الهداية كانت حاضرة، والأعذار زائلة، وهو المراد بقوله تعالى: «بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ» [التفسير الكبير(٢٧/٧)]، و«ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ » [الحج: ١٠].

فيا من يريد النجاة (اغتنم حياتك قبل موتك....). وتزود:

تزود من التقوى فإنك لا تدري

إذا جنَّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجرِ

فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا

وقد نُسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من صغار يُرتجى طول عمرهم
وقد أدخلت أجسامهم ظلمة القبر
وكم من عروس زينوها لزوجها
وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صحيح مات من غير علة
وكم من عليل عاش حينًا من الدهر

قال الله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » [الحشر: ١٨- ٢٠].

أحوال الناس يوم القيامة:

تقدم في السورة بيان أن الكذب على الله ظلم، وكذلك التكذيب بآياته، كما قال تعالى: « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ » ويصف الله وجوه الذين كذبوا على الله يوم يلقونه، فيقول تعالى: «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ»: ويدخل في الكذب على الله قول من قال: إن لله ولدًا، وقول من قال: إن لله شريكًا، وقول من قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء، ويدخل في الكذب على الله قول: هذا حلال وهذا حرام بلا هدى ولا كتاب منير.

والله تعالى يتوعدهم بسواد وجوههم يوم القيامة، وهو دليل خزيهم وعذابهم، كما أن بياض الوجه عنوان النجاة والفوز، كما قال تعالى: « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» [آل عمران: ١٠٦- ١٠٧]، ولذلك قال الله تعالى بعد ما أخبر بسواد وجوههم: «أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ»: الذين استكبروا عن عبادة الله، واستكبروا عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال تعالى: « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: « لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» [النساء: ١٧٢- ١٧٣].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» (مسلم ٩١)، وفي وصفهم بالمتكبرين إيماء إلى أن عقابهم بتسويد وجوههم كان مناسبًا لكبريائهم؛ لأن المتكبر إذا كان سيء الوجه انكسر كبرياؤه؛ لأن الكبرياء تضعف بمقدار شعور صاحبها بمعرفة الناس نقائصه. [التحرير والتنوير٥١ / ٢٣)].

«وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ»: أي وينجي الله من جهنم وعذابها الذين اتقوا كل ما حرّم الله فلم يفعلوه، واتقوا ترك ما فرض عليهم فلم يضيّعوه، فجماع التقوى فعل الواجبات وترك المحرمات، ينجيهم الله بمفازتهم أي بالحسنى التي سبقت لهم من الله، وبأعمالهم الصالحة التي عملوها، «لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ» أي العذاب، «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» ولكنهم فرحون بما آتاهم الله من فضله، وقد استشعروا هذا الفضل، وحمدوا الله عليه، كما قال تعالى: « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » [فاطر: ٣٤- ٣٥].

دلائل التوحيد:

«الله خالق كل شيء»:

فكل شيء من خلق الله، وكل شيء مخلوق مربوب مملوك لله، ومن الأشياء أعمال العباد، فهي خلق الله وكسب من العباد، كما قال تعالى: « وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » [الصافات: ٩٦].

«وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» ورقيب وحفيظ، والوكالة تستلزم العلم التام، والقدرة التامة، فالذي يُوكَّل في شيء يجب أن يكون عالمًا به، قادرًا عليه، ولذلك جمع الله تعالى بين العلم والقدرة في قوله: « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا »[الطلاق: ١٢].

«له مقاليد السماوات والأرض»:

المقاليد جمع مِقْليد، والمقليد المفتاح، والمعنى: له سبحانه وعنده وبيده مفاتيح السموات والأرض؛ لأنه سبحانه قال: « وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ » [الحجر: ٢١]، فإذا كانت الخزائن كلها عنده، كانت المفاتيح عنده، فلا تفتح الخزائن إلا بإذنه، كما قال تعالى: « مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » [فاطر: ٢].

فهذه الآيات كل آية منها تشهد لله بالوحدانية، «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»، «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ»، «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»، ومع ذلك أبى أكثر الناس إلا كفورًا، فحكم الله تعالى عليهم بالخسران، فقال: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ»؛ لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة.

ثم لم يكفهم أن كفروا بآيات الله حتى دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكفر، فقال الله تعالى له: «قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ» بعد ما سمعتم وشهدتم من آيات التوحيد ما سبق ذكره؟!

كيف تدعونني إلى عبادة غير الله، و «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»، « وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ » [النحل: ٢٠]، « أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » [النحل: ١٧]؟!

كيف تدعونني إلى عبادة غير الله، «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ»، « وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » [النحل: ٢٠ -٢١]، والميت لا يُوكَّل، ولا يُتوكَّل عليه؟!

كيف تدعونني إلى عبادة غير الله، والله «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»، « وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ » [فاطر: ١٣]؟!

فالذي يستحق العبادة هو الله، « ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ » [الأعلى: ٢- ٥]، ولذلك قال الله تعالى: « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » [الروم: ٤٠]، وقال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » [البقرة: ٢١- ٢٢].

فلا يدعوا إلى عبادة غير الله إلا الجاهلون، الذين لم يعرفوا الله، ولم يقدروه حق قدره، ولذلك لما قال بنو إسرائيل لموسى: « ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » [الأعراف: ١٣٨].

نسأل الله تعالى أن يثبتنا على كلمة التوحيد ، وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين

باب السنة

الفطرة أساس التربية الصحيحة في الإسلام

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» . [أخرجه البخاري (١/٤٥٦ ، رقم ١٢٩٢) ، ومسلم (٤/٢٠٤٧ ، رقم ٢٦٥٨) ، وأبو داود (٤/٢٢٩ ، رقم ٤٧١٤) والترمذي (٤/٤٤٧ ، رقم ٢١٣٨) ، وقال : حسن صحيح .وبنحوه أخرجه أبو يعلى (٢/٢٤٠ ، رقم ٩٤٢) ، والطبراني (١/٢٨٣ ، رقم ٨٢٨) ، والبيهقي (٦/٢٠٣ ، رقم ١١٩٢٣) وابن عدي (٢/٤٣٤)].

وفي رواية في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ يُولَدْ يُولَدْ عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ كَمَا تَنْتِجُونَ الإِبِلَ فَهَلْ تَجِدُونَ فِيهَا جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا. قَالَ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ». أخرجه مسلم في صحيحه [برقم ٢٦٥٨] .

إعداد/ أ.د. السيد عبد الحليم

ترجمة راوي الحديث:

الصحابي الجليل أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي (١٩ ق.هـ/٥٩٩م - ٥٧ هـ/٦٧٦م)

أبو هريرة صاحب رسول الله ومن كبار الصحابة، قد أجمع أهل الحديث أن أبا هريرة أكثر الصحابة رواية لحديث رسول الله . كان اسمه في الجاهلية عبد شمس بن صخر، ولما أسلم سماه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الرحمن بن صخر الدوسي نسبة إلى قبيلة دوس.

أسلم في قبيلة دوس على يد الطفيل بن عمرو الدوسي سنة ٧ هـ، وهاجر عام خيبر في المحرم سنة ٧ هـ إلى المدينة أثناء فتح خيبر.

كان للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأثر الأكبر في تنشئة وتربية أبي هريرة، فمنذ أن قدم إلى النبي لم يفارقه مطلقاً، وخلال سنوات قليلة حصل من العلم عن الرسول ما لم يحصله أحد من الصحابة جميعًا، وكان النبي يوجهه كثيرًا، فعنه أن النبي قال له: «يا أبا هريرة كن ورعا تكن أعبد الناس».

فضله وعلمه

وأبو هريرة من الصحابة المكثرين، ومن أهل الصُّفة، قدم المدينة واستقر بها، ليأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الدين والعلم، وهو أحد السبعة المكثرين من الصحابة، رضي الله عنهم.

كان رضي الله عنه من علماء الصحابة وفضلائهم، يشهد لذلك رواية كثير منهم عنه، ورجوعهم عليه في الفتوى، فقد روى عنه من الصحابة: زيد بن ثابت، وأبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وأبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وعائشة، والمسور بن مخرمة، وأبو موسى الأشعري، وأنس بن مالك، وأبو رافع مولى رسول الله، وغيرهم من الصحابة.

قال الإمام البخاري: روى عنه ثمانمائة نفس أو أكثر، وكما رووا عنه فقد رجعوا إليه في السؤال والفتوى، ومنهم من قدمه في ذلك ووافقه فيما قال.

عن زياد بن مينا، قال: كان ابن عباس، وابن عمر، وأبو سعيد، وأبو هريرة، وجابر مع أشباه لهم، يفتون بالمدينة عن رسول الله من لدن توفي عثمان إلى أن توفوا، قال: وهؤلاء الخمسة إليهم صارت الفتوى.

وكان من عُبَّاد الصحابة، يكثر الصيام، ويقسم الليل أثلاثًا بينه وبين امرأته وغلامه، كل منهم يقوم ثلث الليل ويوقظ الآخر، رضي الله عنه وأرضاه.

قوله صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة» فإن هذه الصيغة تفيد العموم؛ نظرًا لأنها نكرة في سياق النفي، والنكرة في النفي تعم.

والعام هو اللفظ الذي يدخل فيه عدد غير محصور، وقد ذكر الباحثون في أصول الفقه أن العام له ألفاظ تخصه، وله صيغ محددة؛ منها أسماء الشرط، والاستفهام، الموصولات، والنكرة في سياق النفي، وكل وجميع، والمعرف بالألف واللام، وغيرها من الصيغ التي تدل على إرادة العموم والشمول.

وهاهنا دقيقة تتعلق بنقاش جرى بين المبرد وسيبويه، فإن سيبويه يرى أن العموم يستفاد من النكرة المنفية أو النكرة في سياق النفي، بينما المبرد يقول إن العموم، إنما يُستفاد من لفظة «من» الداخلة على النكرة، وقد صوّب علماء النحو، كما صوب علماء الأصول مذهب الإمام سيبويه إمام النحاة في عصره.

قوله صلى الله عليه وسلم: «من يولد يولد على الفطرة»: «من» اسم موصول موضوع للعموم، فقوله صلى الله عليه وسلم: «يولد على الفطرة» معناه: أن جميع من يُولد؛ يُولد على الفطرة، فإن لفظ «كل» موضوع لإرادة استغراق جميع أفراد المضاف إليه.

قوله صلى الله عليه وسلم: «فأبواه» الفاء في قوله (فأبواه) واقعة في جواب شرط مقدر أو هي للسببية، أو هي للتعقيب بمعنى أنه إذا كان من يولد يولد على الفطرة، فإن التغيير الذي يقع في هذه الفترة، إنما هو بسبب الأبوين، بسبب تأديبهما أو بتعليمهما أو بما يكونان عليه من الانحراف، فلا يوصلان الخير إلى ولدهما، فتتغير فطرته، وتحول وتصير خلقًا آخر.

قوله صلى الله عليه وسلم: «كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» هذا من قبيل التمثيل والتشبيه، بما أن النبي صلى الله عليه وسلم يصور لنا حالة الولد في نشأته على الفطرة، ثم ما ينشأ على تلك الفطرة من التغيير والتبديل، وهذا أمر غير محسوس، إنما هو أمر معنوي، فيحتاج الذي يتتبع الموضوع إلى أن يعرف ذلك بطريق المحسوس، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المثل، لندركه محسوسًا، ملموسًا، مصورًا، فلهذا قال: «كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء». بمعنى أن هذا الولد في هذه الحالة هو بمثابة البهيمة التي تنتج الولد كامل الخلقة، ولكن يتصرفون فيه بقطع أذنه وبتر بعض أعضائه، فيتغير ويحول.

وهذا التشبيه هو الذي يسمى عند البلاغيين بتشبيه التمثيل، ويعرفونه بأنه ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، فإنه ليس تشبيه فرد بفرد، وجزء بجزء، ولكنه تشبيه مجموعة من الصور أو مجموعة من الحالات بحالات أخرى، وهذا من أبلغ التشبيه وأبدعه عند البلاغيين.

وأبو هريرة رضي الله عنه بعد هذا يقول في الحديث: «اقرءوا إن شئتم: «فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا» [الروم: ٣٠]، يستدل على هذا بآية وردت في سورة الروم، وهي قوله سبحانه وتعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» [الروم: ٣٠ - ٣٢]. فقوله سبحانه وتعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ» [الروم: ٣٠] اللفظ مأخوذ من قولهم: أقام العود، يقيمه إذا سواه، وقومه إذا عدله، ومعنى هذا الزم الإسلام، ولا تنحرف عنه، ولا ينصرف وجهك إليه، ولتقم بأسبابه ولتعمل به، ولا يصرفك عنه شيء.

الإنسان مخلوق على فطرة هي الحق:

من هنا يتبين أن الإنسان مخلوق على فطرة، هي جوهر كيانه، ولبّ إنسانيته، وأنه ينبغي العناية بهذه الفطرة، وعدم التفريط فيها، وأن هذه الفطرة ما دامت فإن الإنسان يبقى على الحق، وهذا هو مذهب جمهور العلماء والفقهاء، واستدلوا له بقول أبي هريرة رضي الله عنه تفسيرًا للحديث، «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا» [الروم: ٣٠]، واستدلوا كذلك بحديث عياض بن حمار المجاشعي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الحديث القدسي: «خلقت عبادي حنفاء كلهم، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم». وفي رواية: «حنفاء مسلمين» (رواه مسلم)، فدل على هذا أن الخلق يخلقون حنفاء مسلمين مستقيمين على الدين، ثم يقع التغيير بسبب من الأسباب.

الناس مفطورون على حب الدين:

وقد ذهب ابن قيم الجوزية إلى أنه لا ينبغي أن نفهم من أن الناس مفطورون على فطرة الإسلام، أنهم يعلمون الدين بدون تعليم، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: «وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا» [النحل: ٧٨]، وإنما المعنى في هذا أنهم مفطورون على الدين، يحبونه ويقبلون عليه،

ويرغبون فيه، ويجدون فيه لذتهم، وسعادتهم، وراحة قلوبهم، ويبقون على هذه الحالة، إلا إذا تغيرت فطرتهم بسبب من الأسباب .

اليهودية والمسيحية انحرفتا عن دين الفطرة:

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث: «فأبواه يهودانه وينصرانه» بمعنى أنهم يجعلونه يهوديًا أو يجعلونه نصرانيًا أو يجعلونه مجوسيًا، ومن المعلوم أن اليهودية قد نُسخت بالإسلام، وأن المسيحية كذلك منسوخة بالإسلام، وكذلك سائر الأديان.

فهذه الأديان قد انحرفت عن الفطرة، فالمسيحية مثلاً يؤمنون بالثالوث، وهذه المسيحية لا يوجد فيها كتاب مقدس مروي عن رسولها عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وقد دخلتها فلسفات، وتغيرت وتبدلت، وصارت بذلك منحرفة عن الدين الحقيقي الذي هو دين الفطرة، واليهودية ذكر الله سبحانه وتعالى عن أصلها ما هو مذكور في القرآن لا حاجة إلى إعادته في هذا المقام.

أدلة محافظة الإسلام على الفطرة :

أما الإسلام فهو الدين الذي حافظ على الفطرة؛ لأنه قائم على هذا الكتاب المُنزل من عند الله سبحانه وتعالى المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي وصل إلينا بطريق التواتر ، ثم إن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بإقامة وجهه للدين حنيفًا، إذ إنه فطرة الله ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على هذه الفطرة، ولهذا يروى أنه كان صلى الله عليه وسلم إذا قام للصلاة يقول: «إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا». [مسلم ح٧٧١]. وفيه إشارة إلى الفطرة.

كما أن أئمة الحديث ومنهم الدارمي في سننه، يروي عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا أصبح: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة إبراهيم حنيفًا مسلمًا».

وهذا مما يدل على أن الإسلام هو دين الفطرة، وأن نبي الإسلام كان يحرص على الفطرة، وعلى تزكية النفس بها، وأن يجعلها الإنسان نصب عينيه ولا ينساها أبدًا.

الفطرة تقتضي الأمانة :

إن فطرة الإنسان فطرة خيّرة، كما يذهب إلى ذلك الدين الإسلامي، والدين لما كان هو الفطرة فإنه واحد، ولكنه تعدد لأسباب تاريخية، وآخر الأمر جاء الإسلام الذي هو الدين الذي لم يتغير ولم يتبدل، والذي هو دين الفطرة.

والفطرة تقتضي الأمانة، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة». [البخاري: ٦٤٩٧، ومسلم: ١٤٣ عن حذيفة رضي الله عنه].

بمعنى أن الله سبحانه وتعالى وهب الإنسان فطرة الأمانة، ثم جاء بعد ذلك القرآن فقرأه النبي صلى الله عليه وسلم وفسره بالسنة التي توضحه وتظهر معانيه.

ثم إن الأمانة تشمل أمور التكوين النفسي والعقلي والعلمي، ثم إن الأمانة تنشد فاطرها، فالإنسان قد يغفل الأمانة ويغفل عن الدين، ولكنه في وقت الشدة يتذكر هذه الحقيقة، ويلتجئ إلى فاطره الذي فطره وخلقه؛ يلتمس منه النجاة من الهلاك والعذاب.

الفطرة تتغير بالتربية والتعليم :

ثم إن الفطرة تتغير بالتربية والتعليم، وذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «فأبواه يهودانه وينصرانه»، وفي رواية: «ويمجسانه»، وإسناد ذلك للأبوين من باب التغليب، والمراد أن الفطرة تتأثر بأوضاع المجتمع، وأحوال البيئية؛ حيث ينشأ الأولاد على مقتضى التربية السائدة التي تحرص الأمم والشعوب على تلقينها أبناءها.

ومن هنا أهمية التربية في الإسلام التي يلزم أن تكون على وفاق مع هذا الدين، من حيث كونه دين الفطرة.

فتنمي في النفوس عناصر الإيمان والإسلام والإحسان، وتتعهد الفرد والمجتمع في مجالات السلوك الفردي والجماعي، وتغرس في النفوس فضائل التقوى، وتنهاها عن الفحشاء والمنكر، وتحبب إليها الإصلاح، وتعلم الناس مراقبة النفس ومحاسبتها.

وتكون مع ذلك تربية واقعية، تراعي أحوال الناس وأوضاعهم، وأعرافهم، وفوارقهم الفردية والاجتماعية، وتجعل من المدرسة مؤسسة تهتم بالدرس وتعني بالسلوك.

نسأل الله أن يصلح أحوالنا، ويحفظ علينا ديننا، ويحسن لنا الختام أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

أصول منهج السلف الصالح

إعداد/ الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام بمكة المكرمة

الحمد لله، الحمد لله كتب على نفسه الرحمة، وأفاض على الخلائق سوابغ النعمة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه، وصفيُّه وخليلُه، رحمةُ الله للعالمين، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-، واعلَموا أن أصدقَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-، وشرَّ الأمور مُحدثاتُها، وكلَّ مُحدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار، وما قلَّ وكفَى خيرٌ مما كثُرَ وألهَى، وإنَّ ما تُوعَدون لآتٍ وما أنتم بمُعجزين، «وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» [البقرة: ٢٣٥].

أعداء الإسلام يواجهون كل دعوة تدعو للحق:

أيها المسلمون: إن من العقلِ والحكمة: إدراكَ أن أعداءَ الإسلام والمُتربِّصين به يقِفُون موقفًا صارمًا من كل دعوةٍ تدعُو إلى الحق، وإلى الرجوع إلى أصول الإسلام وثوابتِه ومبادئه وحقائقِه التي تبعثُ روحَ العِزَّة في الأمة، وتقودُ إلى المجدِ والمَنَعة، حتى قال قائلٌ منهم: «إننا لا نُحاربُ الإرهاب، ولكنَّنا نُحارِبُ من أجل أن نُقرِّرُ الإسلام الذي نُريد».

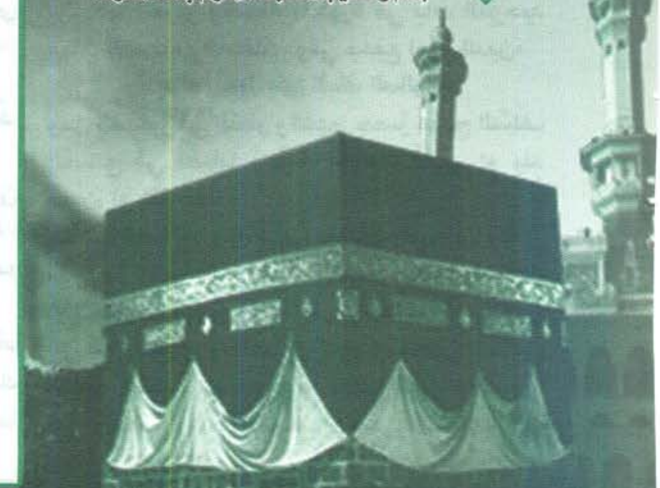
انتشار التفرق الفكري والعقائدي:

وفي عالَمنا تجتاحُه موجاتٌ من التغيير، وطُوفاناتٌ من التحديات؛ يبرُزُ منهجُ الاتباع عند وجود الأضداد المُتخالِفة والمُتنافرة؛ من التكفير والتنفير، وتعظيم الأشخاص، وتصنيف الأحزاب والانتماءات.

يبرُزُ منهجُ الاتباع حين يأخذُ التفرُّقُ الفكريُّ والعقائديُّ في الانتشار، وتنمُو مذاهبُ ومناهِج، وتياراتٌ وفلسَفاتٌ يتميَّزُ فيها منهجُ السلف الصالح، وتظهرُ معالِمُه؛ فهو يأوي -بقوة الله وحولِه- إلى جبلٍ من الأصولِ والأدوات والاستعدادات، يعصِمُه به من الزلاَّت والانحرافات، بإدراكٍ لفقهِ الواقع وأدوات التمكين، مع اللين والحزمِ والرحمة، والدفع بالتي هي أحسن.

فضائل السلف الصالح وخصائصهم:

السَّلفُ الصالحُ هم الصدرُ الأول، الراسِخون في



العلم، المهتدون بهدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، الحافظون لسُنَّته، مُقدَّمُهم صحابةُ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم ورضي عنهم أجمعين-، اختارَهم الله لصُحبة نبيِّهم، وانتخبَهم لإقامة دينه، ورضِيَهم أئمةً للأمة.

يقول -عزَّ شأنه-: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» [التوبة: ١٠٠].

يقول السفارينيُّ -رحمه الله-: «المرادُ بمذهب السَّلَف: ما كان عليه الصحابةُ الكرامُ، وأعيانُ التابعين بإحسان، وأتباعُهم من أئمة الإسلام العُدُول، ممن شُهدَ لهم بالإمامة، وعُرِف عظيمُ شأنهم في الدين، وتلقَّى الناسُ كلامَهم خلفًا عن سلَف، دون رمي ببدعة، أو شهر بلَقَب غير مرضيّ».

ويقول عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: «إنكم قد أصبحتم اليوم على الفطرة، وإنكم ستُحدثون ويُحدَثُ لكم، فإذا رأيتُم مُحدثةً فعليكم بالعهد الأول».

ويقول أيضًا -رضي الله عنه-: «من كان مُستنًا فليستنَّ بمن قد ماتَ؛ فإن الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفتنة، أولئك أصحابُ محمد -صلى الله عليه وسلم-، كانُوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقَهم علمًا، وأقلَّهم تكلُّفًا».

ويتساءَلُ إمامُ الحرمين عبد الملك الجُوينيُّ -رحمه الله- يتساءل: «ما الحقُّ الذي يحمل الإمامُ الخلقَ عليه في الاعتقاد إذا تمكَّنَ منه؟!»، ثم يُجيبُ -رحمه الله- بقوله: «إن الذي يحرصُ الإمامُ عليه جمعَ عامَّة الخلق على مذاهب السَّلَف السابقين قبل أن نبَغَت الأهواء، وزاغت الآراء، وكانُوا ينهَون عن التعرُّض للغوامض، والتعمُّق في المُشكلات، والإمعان في مُلابَسَة المُعضِلات، والاعتناء بجمع الشُّبُهات». انتهى كلامُه -رحمه الله-.

ويقول الإمامُ الذهبي: «فالذي يحتاجُ إليه الحافظ: أن يكون تقيًا ذكيًا نحويًا لُغويًا حييًا سلفيًا».

السَّلَفُ ليس لهم لقبٌ يُعرَفُون به، ولا نسَبٌ ينتسبُون إليه، كما قال بعضُ الأئمة -وقد سُئل عن السُّنَّة- فقال: «السُّنَّةُ ما لا اسمَ له سِوى السُّنَّة، أما غيرُهم فينتسبُون إلى المقالة أو إلى القائل».

يُوضِّحُ ذلك الإمامُ مالكٌ -رحمه الله-، وقد جاءَه رجلٌ فقال: يا أبا عبد الله: أسألُك عن مسألة أجعلُك حُجَّةً فيما بيني وبين الله -عز وجل-. قال مالكٌ: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله؛ سَلْ». قال: من أهلُ السُّنَّة؟! قال: «أهلُ السُّنَّة الذين ليس لهم لقبٌ يُعرَفُون به، لا جهميٌّ ولا قدَريٌّ».

قال أهلُ العلم: «إنما برَزَ الانتسابُ إلى السَّلَف الصالح حينما ظهرَت الفرقُ في الأمة التي قال فيها رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «وستفترقُ هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة»، ثم بيَّن -عليه الصلاة والسلام- النهجَ الحقَّ في قوله: «ما أنا عليه وأصحابي».

الصحابةُ وتابِعُوهم بإحسان هم خيرُ هذه الأمة، وأزكاها دينًا، وأعلاها مقامًا، وأعلمُها بما كان عليه رسولُ الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

المراد بمذهب السلف:

معاشر المسلمين: منهجُ السَّلَف الصالح ليس حقبةً تاريخيَّةً محدودة، ولا جماعةً مذهبيَّةً محصورة؛ بل هو منهجٌ مُستمرٌّ لا يتقيَّدُ بزمَان، ولا ينحصرُ بمكان. وعليه؛ فإن هذا المنهجَ ليس حِزبًا، ولا تيَّارًا، ولا حركةً، وليس تكتُّلاً سياسيًّا، هو منهجٌ لا جماعة.

يُوضِّحُ ذلك: أن المُنضوين تحت هذا المنهَج قطاعٌ عريضٌ من المُسلمين شُعوبًا ودِيارًا؛ بل هم الأصل في عُموم المُسلمين؛ فالمُسلمُ يتَّبِعُ الدليلَ ويسيرُ خلفَه، ويُعظِّمُ السَّلفَ الصالحَ، ويُحبُّهم ويقتدي بهم، وكلُّ إمام من أئمة المُسلمين يقول: «إذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبي».

يقولُ شيخُنا الشيخُ الإمامُ عبدُ العزيز بن باز -رحمه الله-: «السَّلَفُ الصالحُ هم الصحابةُ -رضي الله عنهم-، ومن سلكَ سبيلَهم من التابعين وأتباع التابعين من الحنفيَّة، والمالكيَّة، والشافعيَّة، والحنابِلَة، وغيرهم ممن سارَ على الحق، وتمسَّك بالكتاب العزيز والسُّنَّة المُطهَّرة في باب التوحيد وباب الأسماء والصفات، وفي جميع أمور الدين».

معالم وأصول منهج السلف الصالح:

ومن القُصور في النظر والفهم: حصرُ منهج السَّلَف الصالح في قضايا مُعيَّنة، أو علم مُعيَّن، أو بلدٍ مُعيَّن، أو فئة مُعيَّنة.

السَّلَفُ الصالحُ ليس يدَّعي تمثيلَهم أحدٌ، ولا ينطِقُ باسمهم عالِمٌ، فليس ثمَّة جماعة محصورة تُمثِّلُ هذا المنهَجَ، وإنما يوجدُ أفرادٌ وجماعاتٌ ينتَمون إلى هذا المنهَج، وينتسبُون إليه، ويسعَون لتحقيق مذهب السَّلَف الصالح. إنه منهجٌ ليس محصورًا في انتِساب، وعدمُ الانتِساب لا ينفِي الانتِساب؛ لأنه

منهجٌ ورؤيةٌ.

وهذا المنهجُ ليس مسؤولاً عن أخطاء بعض المُنتسبين إليه، وإنما تُنسَبُ الأقوالُ والأفعالُ والتصرُّفات إلى أصحابها وجماعاتها لا إلى المنهَج.

معاشر المسلمين: منهجُ السَّلَف الصالح يعتمدُ النصَّ الشرعيَّ، وفهمَ السَّلَف الصالح، وطُرُقَ استدلالهم، ومصدرَ التلقِّي عندهم، وليس ذلك محصورًا في فهم عالمٍ بعينه.

أُصولُ منهج السَّلَف الصالح ومبادئُه لم يُولِّدها فكرٌ بشريٌّ، ولا ظرفٌ تاريخيٌّ، ولا اجتهادُ مُجتهد؛ بل عمادُها الكتابُ والسُّنَّةُ.

١- ومن معالم هذا المنهَج: لُزومُ اتباع الكتاب العزيز والسُّنَّة الصحيحة الثابتة، والحَذَرُ من اتباع الهوَى والبدَع، على حدِّ قوله -صلى الله عليه وسلم-: «فإنه من يعِش منكم فسيرَى اختلافًا كثيرًا؛ فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخُلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدثات الأمور؛ فإن كلَّ بدعة ضلالة». أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وغيرُهم من حديث العِرباض بن سارِيَة -رضي الله عنه-، وقال الترمذي: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

٢- ومن معالم هذا المنهَج: العنايةُ بلُزوم الجماعة، والسَّمع والطاعة بالمعروف في المنشَط والمكرَه، على حدِّ قوله -عزَّ شأنُه-: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » [النساء: ٥٩].

وحديث عُبادة بن الصَّامت -رضي الله عنه- قال: دعانا النبيُّ -صلى الله عليه وسلم-، فبايَعناه، فقال فيما أخذَ علينا: «أن بايَعَنا على السَّمع والطاعة في منشَطنا ومكرَهنا، وعُسرنا ويُسرنا، وأثَرَة علينا، وأن لا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه، إلا أن ترَوا كُفرًا بواحًا عندكم من الله فيه بُرهانٌ». أخرجه البخاري في صحيحه.

وهو بيانٌ جليٌّ في عظيم أثَر السَّمع والطاعة، وضرورة تقديمها مهما احلَولَكَت الظروف، وأظلَمَت الدُّروب، غيرَ أنَّ الذي ينبغي تبيُّنُه وبيانُه: أن السمعَ والطاعةَ لا تعني ضياعَ الحقوق أو التفريطَ فيها، فمع لُزوم السَّمع والطاعة من حقِّ الناس المُطالَبَةُ بحُقوقهم من الوُلاة ظلَمَةً كانوا أو عادلين، ولا تنافي بين لُزوم السَّمع والطاعة وظُهور بعض المظالِم وحقِّ المطالَبَة بالحقوق ورفع المظالِم.

٣- ومن معالم هذا المنهَج: النصيحةُ المدلولُ عليها بقوله -عليه الصلاة والسلام-: «الدينُ النَّصيحة، الدينُ النَّصيحة، الدينُ النَّصيحة». قلنا: لمن يا رسول الله؟! قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المُسلمين وعامَّتهم». أخرجه مسلم في صحيحه من حديث تميم الداريِّ -رضي الله عنه-.

نصيحةٌ في إخلاص وصدق وديانة، وحفظ الحقِّ والمكانة، والبُعد عن التَّشنيع والتَّشهير، أو سُلُوك مسالك تُؤدِّي إلى التفرُّق والشَّحناء.

٤- ومن معالم هذا المنهَج: الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المُنكَر، كما قال -عزَّ شأنُه-: « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ » [آل عمران: ١١٠]، وقوله -عزَّ شأنُه-: « وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ » [التوبة: ٧١]، وقوله -جل وعلا-: « ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ » [الحج: ٤١].

٥- ومن معالم هذا المنهَج: توحيد مصدرُ التلقِّي وهو الوحيُ، ويعرِضُون عقولَهم وفهُومَهم وآراءَهم على الكتاب والسُّنَّة؛ فما وافقَها قبلُوه، وما خالَفَها أعرَضوا عنه، ونصُّ الشارع هو الأصلُ، تنقادُ إليه النفوسُ، وتعتمدُ عليه، تتبَعُه ولا يتبَعُها، «لا يُؤمنُ أحدُكم حتى يكون هواهُ تبَعًا لما جِئتُ به». حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، أخرجه الأئمة في مسانيدهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-.

والحُجَّةُ للنصِّ الشرعيِّ، وظاهرُ النصِّ يُؤخَذُ به، ويُصارُ إلى التأويل بدليل، وحُجَّةُ النصِّ لا تُرَدُّ، قطعيًّا كان النصُّ أو ظنِّيًّا، والالتزامُ بنُصوص الكتاب والسُّنَّة لا يُنكِرُ العقلَ ومنزلتَه؛ فالعقلُ أعظمُ ما منَحَ الله الإنسانَ وميَّزَه به، فبه يُتعرَّفُ على الأحكام الشرعيَّة، وهو مَناطُ التكليف وأداةُ الاستنباط.

وهذا المسلَكُ المُستقيمُ هو الذي يُحقِّقُ التوازُنَ بين لفظ النصِّ ومعناه، وظاهره وفحواه، هذا منهجُ السَّلَف حين يأخُذون بظواهر النُّصوص عملاً لا يُنافي الاستفادة المُنضبِطة من إشاراتها ودلالاتها ومقاصدها.

هذا هو الوسطُ بين جفاء الحرفيَّة، وذوَبان التأويل البعيد المُتعسِّف، في مسلك توافُقيٍّ لا يسمَحُ بإهدار أحد الجانبَيْن على حساب الآخر، ولا يطغَى أحدُهما على الآخر، فيُحفَظُ للنصِّ حقُّه ومكانتُه، كما تُقدَّرُ أبعادُه ودلالاتُه ومقاصدُه، مع الاستفادة مما يُمكنُ الاستفادةُ منه من العلوم والمعارف القديم منها والجديد.

يقول الشاطبيُّ -رحمه الله-: «والعقلُ إذا لم يكن مُتَّبعًا للشرع لم يبقَ إلا الهوى والشهوة».

ذم التعصب وآداب الخلاف:

٦- معاشر المُسلمين: ومن معالم هذا المنهَج: أنه لا تعصُّب إلا للحقِّ وما جاء في كتاب الله وكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وعدمُ التعصُّب يقترِنُ بعدم ادِّعاء العصمة لأحد كائنًا من كان من عُلماء الدين وأئمَّته من الصحابة ومن بعدَهم، فضلاً عن غيرهم. فلا عصمةَ إلا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما يُبلِّغُ عن ربِّه -عز وجل-.

ومن هنا؛ فإنهم لا يمنَعون من الخلاف فيما يسُوغُ فيه الخلاف، بناءً على فهم النصِّ وتقدير المصالح والمفاسد، وتحقيق الغاياتِ والمقاصد، إذا صدرَ الاجتهادُ من أهله في محلِّه. ولهذا كان السَّلَفُ الصالحُ يختلفون ويعذُرُ بعضُهم بعضًا.

عدم حصر منهج السلف في قضية أو جماعة:

٧- ومن معالم هذا المنهَج: التفريقُ الظاهرُ بين الحُكم على الأوصاف والحُكم على الأعيان؛ فالحُكمُ على الأعيان فيه من الضبط والتورُّع والاحتياط ما هو معلومٌ في هذا المنهَج المُبارَك.

وبعدُ: عباد الله: فإن سَعَة هذا المنهَج وثراءَ موروثِه لا تعني ذوَبانَه أو عدمَ وُضوح معالمه، غيرَ أن مساحَة الاجتهاد في مُحيطه واسعة، وكلَّما وفَّق اللهُ العبدَ واقتربَ من السُّنَّة ولُزومِها كان أكثرَ مُتابعةً ومُوافقةً واقتداءً، وكلَّما زادَ صلاحُ العبد والتزامُه بالسُّنَّة كان أعمقَ علمًا، وأقلَّ تكلُّفًا، وأكملَ بصيرةً، مع الحرص على أصول العلوم وقواعدها ومعاقدها، وقد جعل الله لكل شيءٍ قدرًا، وفي ذلك كلِّه يكونُ المرجعُ أهلَ الذِّكر من حمَلَة الكتاب وحُفَّاظ السُّنَّة، ليعلَمَه الذين يستنبطُونه منهم المَدلولُ عليه بقوله -جل وعلا-: «وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» [النساء: ٨٣].

شمول المنهج السلفي:

أيها المسلمون: فإن منهجَ السَّلَف هو الدينُ بجميع شرائعه في التوحيد والإيمان، والصلاة، والزكاة، والصِّيام، والحجِّ، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر، في العلاقات والحقوق، والمُعاملات، والسياسة في حقائقِها وحُدودِها وشرائطِها، في وحدةٍ لا تفرُّق فيها.

يقول عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- في كلمةٍ جامعة: «سَنَّ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- ووُلاةُ الأمر من بعده سُنَنًا؛ الأخذُ بها اتِّباعٌ لكتاب الله -عز وجل-، واستكمالٌ لطاعة الله، وقوةٌ على دين الله، ليس لأحدٍ من الخلق تغييرُها ولا تبديلُها، ولا النظرُ في شيءٍ خالَفَها. من اهتدَى بها فهو مُهتد، ومن استنصَرَ بها فهو منصورٌ، ومن تركَها اتَّبَعَ غيرَ سبيل المُؤمنين وولاَّه الله ما تولَّى وأصلاهُ جهنَّم وساءَت مصيرًا».

أئمةُ أهل العلم وأساطينُه مُجدِّدون لا مُؤسِّسُون، فأيُّ دعوةٍ تُعظِّمُ النصَّ الشرعيَّ وتصُونُ دلالَتَه وتقفُ دون تحريف الغالين، وتأويلات الجاهلين، وانتحالات المُبطلين فهي دعوةُ حق.

ولا يُوصَفُ سُلوكُ المرء بالاعتدال والوسَط والسَّماحة إلا إذا سلِمَ من نوعَي التطرُّف: التشدُّد والتنطُّع، والمُيُوعَة والذَّوَبان، وإدخالُ نزاعات النفس والقَناعات الشخصية في الأحكام سُلُوكٌ لا يمُتُّ للعلم بصِلَة، ولا لحُرِّيَة الفكر بنَسَب.

فإذا قال عالِمٌ بتحريم ما يرَى غيرُه حِلَّه، أو وجوب ما يرَى زميلُه استحبابَه لا يُوصَفُ بأنه مُتشدِّد؛ فهذا ليس من العلم ولا من الاتِّصاف به، ناهيكُم إذا كان ما يقولُ به هو قولَ جماهير أهل العلم.

ألا فاتقوا الله -رحمكم الله-، والزَموا الجادَّة، وخُذوا بالسُّنَّة، واستمسكوا بالهدي الأول.

ثم صلُّوا وسلِّموا على الرحمة المُهداة، والنعمة المُسداة: نبيِّكم محمد رسول الله؛ فقد أمركم بذلك ربُّكم في محكم تنزيله، فقال -وهو الصادقُ في قيله- قولاً كريمًا: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك نبيِّنا محمد الحبيب المُصطفى، والنبي المُجتبى، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وارضَ اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليٍّ، وعن الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بعفوك وجُودك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.

درر البحار من ضعيف الأحاديث القصار

القسم الثاني

الحلقة الثامنة

إعداد / علي حشيش

٩١- «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ».

الحديث لا يصح: أخرجه الترمذي في «السنن» (ح٣٣٧١) من حديث أنس مرفوعًا، ثم قال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة». وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (ح٣١٩٦)، وقال: «ولم يرو هذا الحديث عن أبان إلا عبيدُ الله، تفرد به ابنُ لهيعة». اهـ.

وهو ضعيف يدلِّس، قال ابن حبان في «المجروحين» (١١/٢) كان يدلس عن الضعفاء. اهـ. وعنعن.

والثابت حديث: «الدعاء هو العبادة»، ثم قال: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) [غافر: ٦٠]. أخرجه الترمذي في «السنن» (ح٣٢٤٧)، (ح٣٣٧٢) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

قلت: وهو من حديث النعمان بن بشير مرفوعًا.

٩٢- «مَنْ سَبَّ الأَنْبِيَاءَ قُتِلَ، وَمَنْ سَبَّ أَصْحَابِي جُلِدَ».

الحديث لا يصح: أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢٣٦/١) عن عليّ مرفوعًا، ثم قال: «لا يُروى عن عليّ إلا بهذا الإسناد، تفرد به ابنُ أبي أويس». اهـ.

قلت: وفيه عبيد الله بن محمد العمري من شيوخ الطبراني، قال الذهبي: ورماه النسائي بالكذب.

وأقره ابن حجر في «اللسان» (١٣٠/٤) (٥٤٣٥/١٠٨٤)، وأورد له هذا الحديث، وقال: «ومن مناكيره ما روى الطبراني عنه».

٩٣- «مَا أُوتِيَ قَوْمٌ المَنْطِقَ إلا مُنِعُوا العَمَلَ».

الحديث لا أصل له، أورده الغزالي في «الإحياء» (٤١/١)، وقال العراقي في «المغني»: «لم أجد له أصلاً». اهـ. وأورده القاري في «المصنوع» (ح٢٧٤).

٩٤- «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الزُّهَرَةَ؛ فَإِنَّها فَتَنَتِ المَلَكَيْنِ».

الحديث لا يصح: أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ح٦٥٤) من حديث علي رضي الله عنه، وفيه جابر بن يزيد الجعفي، قال الإمام النسائي في «الضعفاء والمتروكين» (٩٨): «متروك».

قلت: وهذا المصطلح عند النسائي بيّناه آنفًا: «كان مذهب النسائي ألا يترك حديث الرجل حتى يجتمع الجميع على تركه».

وقال الجوزجاني وغيره: كذاب؛ كذا في «الميزان» (١٤٢٥/٣٧٩/١).

٩٥- «الخَيْرُ فِيَّ وَفِي أُمَّتِي إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ».

الحديث لا أصل له: أورده الإمام السخاوي في «المقاصد» (ح٤٦٨)، ثم قال: قال شيخنا - يعني الحافظ ابن حجر-: «لا أعرفه»، ثم ذكر البدل الصحيح حديث: «لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله».

قلت: الحديث متواتر أورده الكتاني في «نظم المتناثر في الحديث المتواتر» (ح١٤٥) من حديث ستة عشر صحابيًا. وهو يُغني عن هذا الحديث الذي لا أصل له.

٩٦- «أَحْيُوا قُلُوبَكُمْ بِقِلَّةِ الضَّحِكِ وَالشِّبَعِ، وَطَهِّرُوهَا بِالْجُوعِ تَصْفُ وَتَرِقُّ».

الحديث لا أصل له: قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٨٢/٣): «لم أجد له أصلاً».

٩٧- «لَا تُمِيتُوا الْقُلُوبَ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ كَالزَّرْعِ يَمُوتُ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهِ الْمَاءُ».

الحديث لا أصل له: قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٧٨/٣): «لم أقف له على أصل».

٩٨- «لَيْسَ لِفَاسِقٍ غِيبَةٌ».

الحديث لا يصح: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤١٨/١٩) (ح١٠١١) وابن عدي في «الكامل» (٥٩٦/٢)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٩/٧) (ح٩٦٦٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٠٢/٢، ٢٠٣) (ح١١٨٥، ١١٨٦)، والهروي في «ذم الكلام» (٣٠٥/٣) (ح٦٩٢) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده مرفوعًا، وفيه جعدية بن يحيى الليثي قال الدارقطني: متروك، وذكر ابن القيم هذا الحديث في كتابه «المنار المنيف» وقال (ح٣٠١): قال الدارقطني والخطيب: «قد رُوي من طرقٍ، وهو باطل».

٩٩- «إِذَا سَمِعْتُمِ النِّدَاءَ فَقُومُوا؛ فَإِنَّهَا عَزْمَةٌ مِنَ اللَّهِ».

الحديث لا يصح: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٧٤/٢) من حديث عثمان بن عفان مرفوعًا، وفيه الوليد بن سلمة، قال ابن حبان في «المجروحين» (٨٠/٣): «الوليد بن سلمة الطبراني أبو العباس كان ممن يضع الحديث على الثقات؛ لا يجوز الاحتجاج به بحال».

١٠٠- «سُرْعَةُ الْمَشْيِ تُذْهِبُ بَهَاءَ الْمُؤْمِنِ».

الحديث لا يصح: أخرجه ابن عديّ في «الكامل» (٧٨/٧) (١٩٩٩/١٠) من حديث ابن عمر مرفوعًا، وفيه الوليد بن سلمة، ذكره الذهبي في «الميزان» (٩٣٧٢/٣٣٩/٤) وجعل هذا الحديث من مناكيره، ونقل عن دحيم وغيره انه كذّاب.

١٠١- «إِنَّ لِلَّهِ فِي الأَرْضِ آنِيَةً، وَأَحَبُّ آنِيَةِ اللَّهِ إِلَيْهِ مَا رَقَّ مِنْهَا وَصَفَا، وَآنِيَةُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ قُلُوبُ الْعِبَادِ الصَّالِحِينَ».

الحديث لا يصح: أخرجه عبد الله بن أحمد في «الزوائد على الزهد» (ص:١٩١)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٩٧/٦) من حديث أبي أمامة مرفوعًا، وقال: «غريب من حديث ثور لم نكتبه إلا من حديث محمد بن القاسم».

قلت: ومحمد بن القاسم هو الأسدي وهو آفته، قال الذهبي في «الميزان» (٨٠٦٦/١١/٣): «كذبه أحمد والدارقطني»، وقال النسائي: «ليس بثقة»، فهو ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن عن خالد بن معدان من قوله.

١٠٢- «لَا تُسَيِّدُونِي فِي الصَّلَاةِ».

الحديث لا أصل له: أورده الإمام السخاوي في «المقاصد» (ح١٢٩٢) وقال: «لا أصل له»، وأورده العجلوني في «كشف الخفاء» (ح٣٠١٨) وأقر قول السخاوي، ولكن بلفظ: «لا تسودُوني في الصلاة». وقال: كذب مولد مفترى. وفوق هذا الكذب تجد اللحن، قال العجلوني: «والعوام مع إيرادهم له يلحنون فيه أيضًا فيقولون لا تسيدوني بالياء، وإنما اللفظة بالواو».



الضوابط الشرعية للصكوك والأوراق المالية

الحلقة الأولى

إعداد/ أ.د. علي السالوس
رئيس الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده:

وبعد فقد كثر الكلام مؤخرًا عن الصكوك، وكثر السؤال عن حكمها الشرعي، ولذلك كانت هذه الكلمات.

الأوراق المالية هي الأسهم والسندات

أولاً: الأسهم:

فالأسهم هي صكوك قابلة للتداول تمثل ملكية شائعة في شركة من الشركات، فالمساهمون هم أصحاب الشركات، وتنقسم هذه الأسهم -من حيث الحلال والحرام- إلى ثلاثة أنواع؛ تبعاً لنشاط الشركة:

فالشركة التي نشاطها حلال ولا تتعامل بالربا، أسهمها حلال، والشركة التي نشاطها حرام أسهمها حرام.

والشركة التي نشاطها حلال، غير أنها تتعامل بالربا، أسهمها حرام؛ لأن الربا حرام، آكله وموكله سواء، كما بيّن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، وكذلك كاتبه وشاهداه؛ حيث لعن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال صلى الله عليه وسلم: هم سواء. [صحيح مسلم ١٥٩٨].

ويستوي في ذلك قليل الربا وكثيره، ولا حجة لمن قال بأن قليل الربا يُغتفر في معاملات الشركات؛ فإنه يتعارض مع النصوص، ومع قرارات المجامع الفقهية الدولية.

ثانيا السندات:

أما السندات فهي صكوك قابلة للتداول، لها قيمة اسمية وفائدة تبعاً للقيمة والزمن، فمثلاً من اشترى سنداً بمائة وفائدته عشرة ومدته خمس سنوات، فإنه يأخذ في كل سنة عشرة، أي يأخذ خمسين خلال السنوات الخمس، وفي نهاية المدة يسترد المائة التي دفعها.

وواضح أن السند يُعتبر قرضاً ربوياً لمن تدبر تعريفه وعرف حقيقته، ولذلك صدر عن المجامع الفقهية الدولية القرار التالي:

بعد الاطلاع على أن السند شهادة يلتزم المصدر بموجبها أن يدفع لحاملها القيمة الاسمية عند الاستحقاق، مع دفع فائدة متفق عليها منسوبة

إلى القيمة الاسمية للسند، أو ترتيب نفع مشروط سواء أكان جوائز تُوزع بالقرعة أم مبلغاً مقطوعاً أم خصماً. قرر:

١- أن السندات التي تمثل التزاماً بدفع مبلغها مع فائدة منسوبة إليه أو نفع مشروط محرمة شرعاً من حيث الإصدار أو الشراء أو التداول؛ لأنها قروض ربوية سواء أكانت الجهة المصدرة لها خاصة أو عامة ترتبط بالدولة. ولا أثر لتسميتها شهادات أو صكوكاً استثمارية أو ادخارية أو تسمية الفائدة الربوية الملتزم بها ربحاً أو ريعاً أو عمولة أو عائداً.

٢- تحرم أيضاً السندات ذات الكوبون الصفري؛ باعتبارها قروضاً يجري بيعها بأقل من قيمتها الاسمية، ويستفيد أصحابها من الفروق باعتبارها خصماً لهذه السندات.

٣- كما تحرم أيضاً السندات ذات الجوائز باعتبارها قروضاً اُشترط فيها نفع أو زيادة بالنسبة لمجموع المقرضين، أو لبعضهم لا على التعيين، فضلاً عن شبهة القمار.

٤- من البدائل للسندات المحرمة-إصداراً أو شراءً أو تداولاً-: السندات أو الصكوك القائمة على أساس المضاربة لمشروع أو نشاط استثماري معين؛ بحيث لا يكون لمالكيها فائدة أو نفع مقطوع، وإنما تكون لهم نسبة من ربح هذا المشروع بقدر ما يملكون من هذه السندات أو الصكوك، ولا ينالون من الربح إلا إذا تحقق فعلاً. ويمكن الاستفادة في هذا من الصيغة التي تم اعتمادها بالقرار رقم (٥) للدورة الرابعة لهذا المجمع بشأن سندات المقارضة.

هذا هو القرار الذي يبين تحريم هذه السندات الربوية، ومن هذه السندات أذونات الخزانة، وشهادات الاستثمار التي يصدرها البنك الأهلي: أ، ب، ج (ألف، باء، جيم) وقد أشار إليها القرار المجمعي دون التصريح بأسمائها.

وما جاء في القرار إشارة إلى سندات المقارضة فسيأتي بيانها فيما يلي.

نشأة الصكوك الإسلامية:

كانت لبعض الجهات الفضل في بحث وتقنين الصكوك الإسلامية التي صدرت بها قرارات من المجامع الفقهية ، ومن ذلك تجربة وزارة الأوقاف الأردنية التي كانت تملك قطعة أرض كبيرة في موقع متميز بعمان، فأرادت أن تبني عليه بناء ضخماً يُؤَجَّر تستفيد من غلته، وكان هذا يحتاج إلى عدة ملايين، ومن الصعب تدبير هذا المبلغ، وأرادت ألا تصدر سندات ربوية؛ حيث إن هذا لا يتناسب مع مكانتها الدينية، فشكلت لجنة من عدد من الفقهاء والاقتصاديين للبحث عن بديل شرعي.

فرأت اللجنة إصدار سندات تقوم على القِرَاض؛ أي شركة المضاربة الشرعية، بدلاً من القرض الربوي.

نقدر قيمة الأرض؛ وقيمة المبنى المطلوب بناؤه، ويقسم المبلغ كله إلى سندات، كل سند يمثل ملكية حصة شائعة في الأرض والمبنى معاً، وليس دَيْناً بفائدة ربوية، وأسمت هذه السندات سندات المقارضة؛ للتفرقة بينها وبين سندات القرض.

فمثلاً إذا قدرت الأرض بثلاثين مليوناً، والمبنى بثلاثين مليوناً، تصدر الوزارة سندات مقارضة بستين مليوناً كل سند بألف مثلاً، فيكون للوزارة نصف السندات، وللمشتركين النصف الآخر.

وبعد البناء يؤجر المبنى ويقسم الإيجار على أصحاب السندات، فتأخذ الوزارة نصف الإيجار، ويوزع النصف الآخر، وتتداول هذه السندات في بورصة عمان مع الأوراق المالية الأخرى.

ولما كان الأصل في الوقف أن يكون على التأبيد، فلا يكون ملكاً لأحد، أخذت الوزارة تشتري عدداً من هذه السندات بصفة مستمرة، إلى أن اشترت كل الصكوك، لا يشاركها فيها أحد.

مشروع بنك التنمية الإسلامي بجدة:

رأى بنك التنمية الإسلامي إيجاد بديل

للسندات الربوية تستفيد منه البنوك الإسلامية، فبعد الدراسة انتهت إلى إدارة مشروع لشراء باخرة مثلاً بخمسين مليوناً، ويصدر بالمبلغ المطلوب شهادات كل شهادة بألف مثلاً، ثم يعلن عن الاكتتاب في هذا المشروع.

وبعد انتهاء الاكتتاب يشتري الباخرة ويؤجرها، ويوزع الإيجار على أصحاب الشهادات، ويملك هو عدداً كبيراً منها.

ويقوم البنك بإدارة تداول هذه الشهادات؛ فالبنك الذي عنده فائض في السيولة يشتري ما يشاء منها، والذي عنده عجز في السيولة يبيع من الشهادات التي يملكها.

وبذلك أوجد حلاً لمشكلة من أكبر المشكلات التي تواجه البنوك الإسلامية وهي مشكلة السيولة.

وأطلق البنك على هذه الشهادات اسم «شهادات الاستثمار»، وكما هو واضح تختلف عن شهادات الاستثمار التي يصدرها البنك الأهلي المصري التي تقوم على القرض الربوي وليس على المضاربة الشرعية.

مجمع الفقه الإسلامي الدولي:

عُرض المشروعان على مجمع الفقه الإسلامي الدولي في دورته الثالثة سنة ١٩٨٧م، وقدم الأخ الصديق الأستاذ الدكتور عبد السلام العبادي وزير الأوقاف الأردني، قدم بحثاً عن سندات المقارضة الأردني، وأشار إلى مشروع بنك التنمية، ولم تقدم أبحاث أخرى.

ورأيت أن المشروع الأردني فيه خطأ شرعي، فكتبت ورقة عمل لأبين هذا الخطأ، وتم طبع ورقة العمل، وتوزيعها على السادة أعضاء المجمع وخبرائه، وما كتبته أسميته ورقة عمل، ولم أسمه بحثاً؛ لأنه لا يرقى إلى مستوى البحث العلمي.

وبعد مناقشة ما كُتب، قرر المجمع إرجاء الموضوع إلى مؤتمر قادم لمزيد من البحث والدراسة.

وجريًا على خطة المجمع في وجوب إعداد عدد من الدراسات في الموضوع الواحد.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع وضرورة بحث استكمال جميع جوانبه وتغطية كل تفصيلاته والتعرف على جميع الآراء فيه. قرر:

أن تقوم الأمانة العامة للمجمع بتكليف من تراه لإعداد عدد من البحوث فيه ليتمكن المجمع من اتخاذ القرار المناسب في دورته الرابعة، والله الموفق.

ندوة خاصة

وبعد هذا المؤتمر رأى المجمع أن تُعقد ندوة خاصة لبحث هذا الموضوع وحده، يشترك فيها عدد من رجال الفقه، ورجال الاقتصاد، وذلك قبل انعقاد المؤتمر الرابع حتى تعرض الأبحاث وقرارات الندوة على المجمع.

وعقدت الندوة بحمد الله تعالى، واستمرت أربعة أيام في جلسات صباحية ومسائية، وقدمت عدة أبحاث، وبعد عرضها والمناقشات حولها انتهت الندوة إلى صيغة متفق عليها، وضعت لها الضوابط الشرعية والاقتصادية، وقد راعينا في هذه الضوابط صلاحيتها للتطبيق في البلاد المختلفة، تبعاً لحالتها الاقتصادية.

وأذكر هنا- شاكراً ومقدراً - أنني عندما التقيت في الندوة بأخي الأستاذ الدكتور عبد السلام العبادي قال لي: «إن الخطأ الذي أشرت إليه في المؤتمر الثالث تم تصحيحه بعد أن عرضت الموضوع على اللجنة المختصة».

وأقول هكذا يجب أن يكون موقفنا عندما يتبين لنا خطأ شرعي، بل أي خطأ.

وما انتهينا إليه في الندوة - مع الأبحاث المختلفة- قُدم للمؤتمر الرابع للمجمع، فأصدر قراراً أرجو أن يأخذ به العالم الإسلامي كله؛ تركاً للربا الذي يمحق ولا يُبارك فيه، وإلى جانب تحكيم الشرع فإن هذا البديل هو الأفضل من الناحية الاقتصادية، فهو خير لديننا ودنيانا.

وهذا هو نص القرار

سندات المقارضة وسندات الاستثمار

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين.

قرار رقم (٥)

إن مجلس الفقه الإسلامي المنعقد في دورة مؤتمره الرابع بجدة في المملكة العربية السعودية من ١٨-٢٣ جمادى الآخر ١٤٠٨هـ الموافق ٦-١١ فبراير ١٩٨٨م.

قرر ما يلي:

أولاً: من حيث الصيغة المقبولة شرعاً لصكوك المقارضة:

١- سندات المقارضة هي أداة استثمارية تقوم على تجزئة رأس مال القراض- المضاربة - بإصدار صكوك ملكية برأس مال المضاربة على أساس وحدات متساوية القيمة ومسجلة بأسماء أصحابها؛ باعتبارهم يملكون حصصاً شائعة في رأس مال المضاربة وما يتحول إليه، بنسبة ملكية كلّ منهم فيه، ويفضل تسمية هذه الأداة الاستثمارية «صكوك المقارضة».

٢- الصورة المقبولة شرعاً لسندات المقارضة بوجه عام لا بد أن تتوافر فيها العناصر التالية:

العنصر الأول: أن يمثل الصك ملكية حصة شائعة في المشروع الذي أصدرت الصكوك لإنشائه أو تمويله، وتستمر هذه الملكية طيلة المشروع من بدايته إلى نهايته.

وترتب عليها جميع الحقوق والتصرفات المقررة شرعاً للمالك في ملكه من بيع، وهبة، ورهن، وإرث، وغيرها، مع ملاحظة أن الصكوك تمثل رأس مال المضاربة.

العنصر الثاني: يقوم العقد في صكوك المقارضة على أساس أن شروط التعاقد تحددها نشرة الإصدار، وأن الإيجاب يُعبّر عنه «الاكتتاب» في هذه الصكوك، وأن القبول تعبر عنه موافقة الجهة المصدرة.

ولا بد أن تشتمل نشرة الإصدار على جميع البيانات المطلوبة شرعاً في عقد القراض (المضاربة) من حيث بيان معلومية رأس المال، وتوزيع الربح، مع بيان الشروط الخاصة بذلك الإصدار، على أن تتفق جميع الشروط مع الأحكام الشرعية.

العنصر الثالث: أن تكون صكوك المقارضة قابلة للتداول بعد انتهاء الفترة المحددة للاكتتاب، باعتبار ذلك مأذوناً فيه من المضارب عند نشوء السندات مع مراعاة الضوابط التالية:

أ) إذا كان مال القراض المتجمع بعد الاكتتاب، وقبل المباشرة في العمل بالمال ما يزال نقودًا، فإن تداول صكوك المقارضة يُعتبر مبادلة نقد بنقد، وتطبق عليه أحكام الصرف.

ب) إذا أصبح مال القراض ديونًا تطبق على تداول صكوك المقارضة أحكام تداول التعامل بالديون.

ج) إذا كان مال القراض موجودات مختلطة من النقود، والديون، والأعيان، والمنافع، فإنه يجوز تداول صكوك المقارضة وفقا للسعر المتراضا عليه، على أن يكون الغالب في هذه الحالة أعيانًا ومنافع.

أما إذا كان الغالب نقودًا أو ديونًا فتراعى في التداول الأحكام الشرعية التي ستبينها لائحة تفسيرية توضع وتعرض على المجمع في الدورة القادمة.

وفي جميع الأحوال يتعين تسجيل التداول أصوليًا في سجلات الجهة المصدرة.

العنصر الرابع: إن من يتلقى حصيلة الاكتتاب في الصكوك لاستثمارها وإقامة المشروع بها هو المضارب- أي عامل المضاربة-، ولا يملك من المشروع إلا بمقدار ما قد يسهم به بشراء بعض الصكوك، فهو رب مال بما أسهم به بالإضافة إلى أن المضارب شريك في الربح بعد تحققه بنسبة الحصة المحددة له في نشرة الإصدار، وتكون ملكيته في المشروع على هذا الأساس.

وأن يد المضارب على حصيلة الاكتتاب في الصكوك، وعلى موجودات المشروع هي يد أمانة، فلا يضمن إلا بسبب من أسباب

الضمان الشرعية.
٣- مع مراعاة الضوابط السابقة في التداول: يجوز تداول صكوك المقارضة في أسواق الأوراق المالية، إن وُجدت بالضوابط الشرعية، وذلك وفقاً لظروف العرض والطلب، ويخضع لإرادة المتعاقدين. كما يجوز أن يتم التداول بقيام الجهة المصدرة في فترات دورية معينة بإعلان أو إيجاب يوجّه إلى الجمهور تلتزم بمقتضاه خلال مدة محددة بشراء هذه الصكوك من ربح مال المضاربة بسعر معين، ويحسن أن تستعين في تحديد السعر بأهل الخبرة، وفقاً لظروف السوق والمركز المالي للمشروع، كما يجوز الإعلان عن الالتزام بالشراء من غير الجهة المصدرة من مالها الخاص، على النحو المشار إليه.
٤- لا يجوز أن تشتمل نشرة الإصدار أو صكوك المقارضة على نص بضمان عامل المضاربة رأس المال، أو ضمان ربح مقطوع أو منسوب إلى رأس المال، فإن وقع النص على ذلك صراحة أو ضمناً بطل شرط الضمان واستحق المضارب ربح مضاربة المثل.
٥- لا يجوز أن تشتمل نشرة الإصدار ولا صك المقارضة الصادر بناء عليها على نص يُلزم بالبيع، ولو كان معلقاً أو مضافاً للمستقبل. وإنما يجوز أن يتضمن صك المقارضة وعدًا بالبيع، وفي هذه الحالة لا يتم البيع إلا بعقد بالقيمة المقدرة من الخبراء وبرضى الطرفين.
٦- لا يجوز أن تتضمن نشرة الإصدار ولا الصكوك المصدرة على أساسها نصًا يؤدي إلى احتمال قطع الشركة في الربح، فإن وقع كان العقد باطلاً.
ويترتب على ذلك:
أ- عدم جواز اشتراط مبلغ محدد لحَمَلة الصكوك، أو صاحب المشروع في نشرة الإصدار، وصكوك المقارضة الصادرة بناء عليها.
ب- أن محل القسمة هو الربح بمعناه الشرعي، وهو الزائد عن رأس المال وليس الإيراد أو الغلة، ويعرف مقدار الربح، إما بالتنضيض (التصفية)، أو بالتقويم للمشروع بالنقد، وما زاد عن رأس المال عند التنضيض أو التقويم فهو الربح الذي يُوزع بين حملة الصكوك وعامل المضاربة، وفقاً لشروط العقد.
جـ- أن يعد حساب أرباح وخسائر للمشروع وأن يكون معلناً، وتحت تصرف حملة الصكوك.
٧- يستحق الربح بالظهور، ويملك بالتنضيض أو التقويم، ولا يلزم إلا بالقسمة، وبالنسبة للمشروع الذي يدرّ إيراداً أو غلة، فإنه يجوز أن توزع غلته، وما يوزع على طرفي العقد قبل التنضيض (التصفية) يعتبر مبالغ مدفوعة تحت الحساب.
٨- ليس هناك ما يمنع شرعاً من النص في نشرة الإصدار على اقتطاع نسبة معينة في نهاية كل دورة إما من حصة حملة الصكوك في الأرباح - في حالة وجود تنضيض دوري- وإما من حصصهم في الإيراد أو الغلة الموزعة تحت الحساب ووضعها في احتياطي خاص لمواجهة مخاطر خسارة رأس المال.
٩- ليس هناك ما يمنع شرعاً من النص في نشرة الإصدار أو صكوك المقارضة على وعد طرف ثالث منفصل في شخصيته وذمته المالية عن طرفي العقد بالتبرع بدون مقابل بمبلغ مخصص لجبر الخسران في مشروع معين، على أن يكون التزامًا مستقلاً عن عقد المضاربة، بمعنى أن قيامه بالوفاء بالتزامه ليس شرطا في نفاذ العقد وترتب أحكامه عليه بين أطرافه، ومن ثم فليس لحملة الصكوك أو عامل المضاربة الدفع ببطلان المضاربة أو الامتناع عن الوفاء بالتزاماتهم بها بسبب عدم قيام المتبرع بالوفاء بما تبرع به، بحجة أن هذا الالتزام كان محل اعتبار في العقد.
وللحديث بقية في العدد القادم إن شاء الله تعالى.

إلى المتجرئين على الفُتيا

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وأصلي وأسلم على نبينا محمد الداعي إلى السبيل الأقوم.

أما بعدُ: فإنّ من أكبر الجنايات أن يتقول على الله بغير علم ، ومن ذلك أن يقول الشخص عن شيء: إنه حلال أو حرام، وهو لا يدري عن حكم الله فيه.

إعداد / عبده الأقرع

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٥٩- ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦- ١١٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فانظروا كيف قرن الله سبحانه القول عليه بلا علم، بالشرك به والبغي، والإثم والفواحش؟ بل لقد جاءت هذه المحرمات الأربعُ مرتبةً على حسب مراتب الشدة فيها على سبيل التعلي، فأهونها أولها، وأخطرها آخرها، ولا عَجَبَ، فما الشركُ بالله إلا ضرب من القول على الله بغير علم.

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - عند هذه الآية: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]: أي: من الافتراء والكذب، من دعوى أنّ له ولدًا ونحو ذلك ممّا لا علم لكم به.

كما بيّن سبحانه وتعالى أنّ القول على الله بغير علم من عمل الشيطان، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨- ١٦٩].

إن التحليل والتحريم حقّ لله وحده، فالحلالُ ما أحلَّهُ، والحرامُ ما حرَّمه الله.

وإنَّ من العقل، وإنَّ من الإيمان، وإنَّ من تقوى الله وتعظيمه أن يقول الرجل عما لا يعلم (لا أدري)؛ فإن ذلك من تمام العقل، لأنّ الناس إذا رأوا تثبُّته وثقوا به، ولأنه يعرف قدر نفسه حينئذ وينزلها منزلتها، وإنّ ذلك من تمام الإيمان بالله وتقوى الله؛ حيث لا يتقدم بين يدي ربه، ولا يقول عليه ما لا يعلم، ولقد رسَمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ومن بعده من السلف الصالح - رضوان الله عليهم - المسلكَ الوضاء في هذه القضية الخطيرة، ديانةً وورعًا وتثبتًا.

فهذا أعلمُ الأمة وإمامها صلى الله عليه وسلم يُسأل عما لم ينزل عليه فيه وحي، فينتظر حتى ينزل عليه الوحي. وأمثلة ذلك غير قليلة، من ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]، وقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

وَكُفْرٌ بِهِ) [البقرة: ٢١٧].

وقوله سبحانه: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) [البقرة: ٢١٩].

وقوله سبحانه: (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) [البقرة: ٢١٩].

وقوله سبحانه: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [البقرة: ٢٢٠].

وقوله سبحانه: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة: ٢٢٢].

وقوله سبحانه: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [الأعراف: ١٨٧].

وقوله سبحانه: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا) [الكهف: ٨٣].

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علمه ربه، قال الله تعالى: (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [النساء: ١١٣]، ومع هذا كان صلى الله عليه وسلم يتوقف حتى ينزل عليه الوحي من السماء بالجواب من الله سبحانه.

وهكذا كان الأجلاءُ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض لهم المسألة لا يدرون حكم الله فيها، فيتوقفون فيها .



فهذا أبو بكر - رضي الله عنه - يقول: «أيُّ سماء تُظلني، وأي أرض تُقلني، إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟».

وها هو عمر الفاروق رضي الله عنه تنزل به الحادثة، فيجمعُ لها أكابر الصحابة، ويستشيرهم فيها، قال ابن سيرين رحمه الله تعالى: «لم يكن أحدٌ بعد النبيِّ صلى الله عليه وسلم أهيب لما لا يعلم من أبي بكر، ولم يكن أحدٌ بعد أبي بكر أهيب لما لا يعلم من عمر».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ الذي يُفتي الناس في كل ما يسألونه لمجنونٌ». [جامع بيان العلم: ٢٢٠٦].

وقال أيضًا: «من سُئل منكم عن علم هو عنده، فليقل به، فإن لم يكن عنده، فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم». [البخاري: ٤٨٠٩، ومسلم ٢٧٩٨].

ورحم الله الإمام الشعبي حينما سُئل عن مسألة، فقال: لا أدري، فقال له أصحابه: إنا نستحي لك من كثرة ما تُسأل فتقول: لا أدري، فقال: «لكن الملائكة لم تستحِ حين قالت: (سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) [البقرة: ٣٢]. (الفقيه والمتفقه: ١١٢٣].

وكان عطاء بن رباح يقول: «لا أدري» نصف العلم. [سير أعلام النبلاء ٥/ ٨٥].

وقال بعضهم: «إذا أخطأ العَالِمُ (لا أدري)، فقد أُصيبت مقاتلُهُ». [جامع بيان العلم: ١٥٨٠].

وفي تدافع الفتوى، وذمِّ المسارعة إليها يقول عبد الرحمن بن أبي ليلى - رحمه

الله-: «أدركتُ عشرين ومائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما كان منهم مُحدِّث إلا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه الحديث، ولا مُفتٍ إلا ود أنَّ أخاه كفاه الفتيا». [جامع بيان العلم: ٢١٩٩].

وهذا إمامُ دار الهجرة - رحمه الله - يقدمُ عليه رجلٌ من مسافة بعيدة، فيعرضُ عليه أربعين مسألة، فيجيبُ عن أربعٍ منها، ويقول في ستٍّ وثلاثين: الله أعلمُ، فيقول الرجل: أنت مالكُ بن أنس، إليك تُضرب أكباد الإبل، وإليك الرحلةُ من كل بلدٍ، وتقول: الله أعلم؟ ماذا أقول لأهل بلدي إذا رجعتُ إليهم؟ قال: تقول لهم: «إنَّ مالكًا يقولُ: الله أعلم». [التمهيد: ١/٧٣].

وقال سُحنون بن سعيد رحمه الله: «أجرأُ الناس على الفتيا أقلهم علمًا، يكون عند الرجل البابُ الواحد من العلم، يظن أن الحق كله فيه». [جامع بيان العلم: ٢٢١١].

وقال بشر الحافي رحمه الله: «من أحبَّ أن يُسأل، فليس بأهل أن يُسأل». [الفقيه والمتفقه: ١٠٨٤].

وقال الخطيب البغداديُّ رحمه الله: «كل من حرص على الفتوى، وسابق إليها، وثابر عليها إلا قل توفيقه، واضطرب في أمره، وإذا كان كارهًا لذلك، غير مختار له، وما وجد مندوحةً عنه، وقدر أن يُحيل بالأمر فيه على غيره كانت المعونة له من الله أكبر، والصلاحُ في فتاويه وجوابه أغلب». [الفقيه والمتفقه: ٢/٣٥٠].

إذا كان هؤلاء الأئمة - مع جلالة قدرهم، وعظيم مكانتهم - يسلكون مسالك التورُّع والتثبت، فكيف هي الحال الآن؟

وعن مالك قال: « دخل رجل على ربيعة بن عبد الرحمن، فوجده يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ وارتاع لبكائه، فقال له: أمصيبة دخلت عليك؟ فقال: لا، ولكن استُفتي من لا علم له وظهر في الإسلام أمر عظيم، قال ربيعة: ولبعض من يفتي ها هنا أحق بالسجن من السراق».

قال بعض العلماء: «فكيف لو رأى ربيعةُ زماننا؟!». [أدب الفتوى لابن الصلاح (ص٣٥)].

فاعلم أخي الحبيب أنَّ الجرأةٍ على الفتوى جرأةٌ على النار، فالويلُ لكلٍ من ارتقى هذا المرتقى الصعب، فأضلَّ فئامًا من الأُمة، ممن سيحملون أوزارهم وأوزارًا مع أوزارهم.



وحسبنا جميعًا قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة». [صحيح الجامع: ١٦١٩].

وقول صلى الله عليه وسلم: «وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم». [البخاري: ٦٤٧٨].

فكيف بمن أحل ما حرَّم الله، أو حرَّم ما أحل الله؟ قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٢- ١٣].

اللهم اعصمنا من الزلل.

من الآداب الإسلامية

آداب الأخوة والصحبة

مجاهدة النفس في التخلص من الغيبة

الحلقة السابعة

إعداد/ د. سعيد عامر
الأمين العام للجنة الفتوى بالأزهر الشريف



الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه أجمعين.

تحدثنا في العددين السابقين عن آفة الغيبة، ومفاسدها وشرورها، ونكمل ما قد سقناه بكيفية مجاهدة النفس في التخلص من الغيبة، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

١- مجاهدة النفس وتأديبها:

أدب النفس ممدوح بكل لسان، ومتزين به في كل مكان، وباق ذكره مدى الأزمان، وكل مؤمنٍ بصير يعلم أن حاجة المرء إلى تأديب نفسه من أهم الحاجات؛ إذ إن تأديب النفس وتهذيبها وتزكيتها سر سعادتها في الدنيا والآخرة.

وإهمال النفس سبب شقاء المرء في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا» [الشمس: ٧- ١٠].

فما أحوجنا إلى أن نؤدب ونهذب ونزكي نفوسنا؛ لأنها مأوى لكل شر، قال الله تعالى: «إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [يوسف: ٥٣].

روى الخطيب وحسنه الألباني في الصحيحة برقم (٣٤٢) قال صلى الله عليه وسلم: «إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يُعطه، ومن يتوق الشر يُوقه».

وذكر أيضًا عن أبي حازم رحمه الله قال: «قاتل هواك أشد مما تقاتل عدوك».

ولذلك جاءت الشرائع آمرة

بالفضائل ومحذرة من الرذائل، فليجاهد المسلم نفسه على تقويم لسانه، وتطهيره من الآفات لاسيما الغيبة، فإن استقامة اللسان ركن ركين من أركان استقامة سائر أعضائه، فعن مجاهد قال: ما من شيء يتكلم به العبد إلا أُحصي عليه، حتى أنينه في مرضه.

ولذلك جاءت النصوص الكثيرة في تعظيم شأن اللسان ترغيبًا وترهيبًا. وفي الترهيب: عن الغيبة والنميمة والكذب.. وآفات اللسان الأخرى، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: والذي لا إله غيره، ما على ظهر الأرض من شيء أحوج إلى طول سجن من لسان.

وكان السلف رحمهم الله يجاهدون أنفسهم أشد المجاهدة لتقويم اللسان وتهذيبه ويصابرون على ذلك السنين الطوال.

وعلى ذلك فالعلاج الأول لداء الغيبة هو: مجاهدة النفس على لزوم الصمت، والاقتصار على الكلام بذكر الله، وما ترجحت مصلحته، والمحاسبة الدائمة للنفس، ولذلك قال فضالة بن عبيد رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المجاهد من جاهد نفسه في الله عز وجل». [الترمذي وقال: حسن صحيح وصححه الألباني].

٢- الفرار من مجالس الغيبة:

على المسلم أن يصاحب الصالحين، ويلزم مجالس المتورعين عن الغيبة، المتميزين بصيانة ألسنتهم.

روى أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي». وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

وفي الحديث المتفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة».

قال الإمام النووي: فيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة، ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع، ومن يغتاب الناس، أو يكثر فجره وبطالته، ونحو ذلك من الأنواع المذمومة. [راجع شرح النووي ٥/٤٨٤].

وغيبة المسلم من اللغو القبيح الذي يتنزه المؤمنون عن حضور مجالسه والإنصات إليه، قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ» [المؤمنون: ٣]، وقال الله عز وجل: «وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا» [القصص: ٥٥]، وقال جل وعلا: «وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا» [الفرقان: ٧٢].

ولذلك كان حال السلف التنزه عن الغيبة، وقال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض الناس، وقد امتدح حسان بن ثابت رضي الله عنه أم المؤمنين رضي الله عنها فقال:

حصانٌ رزانٌ ما تُزن بريبة
وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

حصان: أي محصنة عفيفة، رزان: كاملة العقل، ما تُزَنُّ أي ما تتهم، غرثى: جائعة، أي لا تغتاب الناس، لأنها لو اغتابتهم شبعت من لحومهم.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

إعداد/ مصطفى البصراتي



الحلقة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

في هذا المقال نتحدث عن المثل الثاني في القرآن، وهو من سورة البقرة في الآيتين: التاسعة عشرة والعشرين، وهو قوله تعالى: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [البقرة: ١٩ - ٢٠].

التفسير المفصل:

قوله تعالى: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ...» «أو» هنا للتنويع لأن المثل الثاني نوع آخر، والكاف اسم بمعنى «مثل»- و«أو» عطفت لفظ (صيب) على الذي (استوقد نارًا).

إذن المثل هنا في قوله تعالى: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ» [البقرة: ١٩] عطف على التمثيل السابق وهو قوله تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا» [البقرة: ١٧] أعيد تشبيه حالهم بتمثيل آخر وبمراعاة أوصاف أخرى، فهو تمثيل لحال المنافقين المختلطة بين جواذب ودوافع؛ حين يجاذب نفوسهم جاذب الخير عند سماع مواعظ القرآن وإرشاده، وجاذب الشر من أعراق النفوس والسخرية بالمسلمين، بحال صيب من السماء اختلطت فيه غيوث وأنوار ومزعجات وأكدار، جاء على طريقة بلغاء العرب في التفنن في التشبيه.

و(الصيب): المطر النازل من السماء يصيب البلاد فتحيا به.

قال القاسمي: الصيب: هو المطر الذي يصوب (أي ينزل) من علو إلى أسفل - فشبّه الهدى - الذي هدى الله به عباده بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، ونصيب المنافقين من الهدى بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك - مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وأن تلك الظلمات التي فيه وذلك الرعد والبرق، مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب.

و«السماء»: قال الشيخ ابن عثيمين: المراد بـ«السماء» هنا العلو، وقال الشوكاني في فتح القدير: والسماء في الأصل كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت: سماء، والسماء أيضًا: المطر، سمي به لنزوله منها.

وقال ابن عاشور: والسماء تُطلق على الجو المرتفع فوقنا الذي تخاله قبة زرقاء، وعلى الهواء المرتفع، قال الله تعالى: «كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ» [إبراهيم: ٢٤]، وتطلق على السحاب، وتطلق على المطر نفسه، ففي الحديث: «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم على إثر سماء كانت من الليلة...» والحديث متفق عليه.

قوله تعالى: «فيه ظلماتٌ» أي: معه ظلمات؛ لأن الظلمات تكون مصاحبة له، وهذه الظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والدليل على أنها ظلمة الليل قوله تعالى بعد ذلك: «يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ» [البقرة: ٢٠]، وقوله تعالى: «كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ» [البقرة: ٢٠]، وهذا لا يكون إلا في الليل. والثاني: ظلمة السحاب؛ لأن السحاب الكثير يتراكم بعضه على بعض، فيحدُث من ذلك ظلمة فوق ظلمة. والثالث: ظلمة المطر النازل؛ لأن المطر النازل له كثافة تُحدث ظلمةً، هذه ثلاث ظلمات، وربما تكون أكثر، كما لو كان في الجو غبار.

قوله تعالى: «وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ» [البقرة: ١٩] التنوين في

الكل للتفخيم والتهويل - كأنه قيل: فيه ظلماتٌ داجية، ورعدٌ قاصف، وبرق خاطف. [قاله القاسمي في محاسن التأويل].

و«الرعد» هو الصوت الذي نسمعه من السحاب، أما (البرق)، فهو النور الذي يلمع في السحاب، فهؤلاء عندهم ظلمات في قلوبهم- فهي مملوءة ظلمة من الأصل. أصابها صيب- وهو القرآن- فيه رعد، والرعد هو وعيد القرآن، إلا أنه بالنسبة لهؤلاء المنافقين وخوفهم منه كأنه رعد شديد، وفيه برق - وهو وعد القرآن، إلا أنه بالنسبة لما فيه من نور وهدى يكون كالبرق؛ لأن البرق ينير الأرض. (قاله ابن عثيمين).

قوله تعالى: «يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ» [البقرة: ١٩] الضمير في «يجعلون» يعود على أصحاب الصيب، ففيها حذف المضاف، والتقدير: أصحاب الصيب؛ لأنه ليس المشبه به هنا هو الصيب، وإنما المشبه به الذين أصابهم الصيب.

«أصابعهم» أصابع جمع أصبع - قاله النيسابوري في غرائب القرآن- وإنما لم يقل أناملهم مع أنها هي التي تُجعل في الآذان؛ لأن في ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل، ولأن اسم الكل قد يُطلق على البعض، نحو: «فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا» [المائدة: ٣٨]، والمراد إلى الرسغ، وليس بعض الأصابع، كالمسبحة مثلاً يجعلها في الآذان- أولى من بعض حتى يقال: لم ذكر العام والمراد الخاص؟

قال مقاتل: «يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم» [البقرة: ١٩]، يقول: مثل المنافق إذا سمع القرآن صَمَّ على أذنيه كراهةً للقرآن، بمنزلة الذي يجعل أصبعيه في أذنيه من شدة الصاعقة.

قال ابن عثيمين رحمه الله: وقد قيل: إن في الآية مجازًا من وجهين؛ الأول: أن الأصابع ليست كلها تُجعل في الآذان، والثاني: أنه ليس كل الأصبع يدخل في الأذن، والتحقيق: أنه ليس في الآية مجاز، أما الأول: فلأن «أصابع» جمع عائد على قوله تعالى: «يَجْعَلُونَ» فيكون من باب توزيع الجمع على الجمع - أي يجعل كل واحد منهم أصبعه في أذنه، وأما الثاني: فلأن المخاطب لا يمكن أن يفهم من جعل الأصبع في الأذن أن جميع الأصبع تدخل في الأذن، وإذا كان لا يمكن ذلك امتنع أن تُحمل الحقيقة على إدخال جمع الأصبع، بل الحقيقة أن ذلك إدخال بعض الأصبع، وحينئذ لا مجاز في الآية.

على أن القول الراجح أنه لا مجاز في القرآن أصلاً؛ لأن معاني الآيات تُدرك بالسياق، وحقيقة الكلام: ما دل عليه السياق - وإن استعملت الكلمات في غير أصلها، وبحث ذلك مذكور في كتب البلاغة وأصول الفقه. انتهى كلام ابن عثيمين.

قوله تعالى: «مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ» [البقرة: ١٩]، «من» سببية - أي يجعلونها بسبب الصواعق، و«الصواعق» جمع صاعقة، وهي تصعق- أي تُهلك من أصابته، هذه الصواعق معروفة بآثارها، فهي نار تنطلق من البرق، فإذا أصابت أحدًا أو شيئًا أو حرقته، وغالبًا تسقط على النخيل، وتحرقها، وترى فيها النار والدخان، وأحيانًا تسقط على المنازل وتهدمها؛ لأنها كتلة نارية تنطلق بشدة لها هواء تدفعه أمامها، فيجعلون أصابعهم في آذانهم من هذه الصواعق لئلا يموتوا، ولكنهم لا ينجون منها بهذا الفعل، إلا أنهم كالنعامة إذا رأت الصياد أدخلت رأسها في الرمل لئلا تراه، وتظن أنها إذ لم تره نجت منه، وكذلك الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق لا يسلمون بهذا، إذا أراد الله تعالى أن يصيبهم أصابهم، ولهذا قال الله تعالى: «وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ» [البقرة: ١٩] فلن ينفعهم.

وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم» [البقرة: ١٩]، أي هم في ظلمات ما هم فيه من الكفر والحذر من القتل - على الذي هم عليه من الخلاف والتخويف منكم- على مثل ما وصف من الذي هو في ظلمة الصيب، فجعل أصابعه في أذنيه من الصواعق حذر الموت.

(يكاد البرق يخطف أبصارهم) أي: لشدة ضوء الحق- كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، أي يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا متحرين. اهـ.

قال ابن عطية في المحرر الوجيز: قال جمهور المفسرين: «مثل الله تعالى القرآن بالصيب؛ لما فيه من الإشكال عليهم، والعمى: هو الظلمات، وما فيه من الوعيد والزجر هو الوعد، وما فيه من النور والحجج الباهرة التي تكاد أن تبهرهم وهو البرق وتخوفهم وتروعهم، وحذرهم هو جعل أصابعهم في آذانهم، وفضح نفاقهم، واشتهار

كفرهم، وتكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة ونحوه هي الصواعق». اهـ.

قوله تعالى: «يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ»: ولما بيّن الله شدة الصوت، وأنهم لفرارهم منه، وعدم تحملهم إياه يجعلون أصابعهم في آذانهم بيّن شدة الضوء عليهم، فقال تعالى: «يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ» [البقرة: ٢٠] أي يقرب أن يخطف أبصارهم- أي يأخذها بسرعة، فتعمى؛ وذلك لقوته وضعف أبصارهم، فالله تعالى شبّههم في كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا في مفازة وسواد في ليلة مظلمة أصابهم مطر فيه ظلمات، من صفتها أن الساري لا يمكنه المشيُ فيها، ورعد من صفته أن يضع السامعون أصابعهم في آذانهم من هوله، وبرق من صفته أن يقرب من أن يخطف أبصارهم ويعميها من شدة توهجه.

المعنى الإجمالي

فهذا مَثَل ضربه الله للقرآن، وصنيع الكافرين والمنافقين معه، فالمطر: القرآن؛ لأنه حياة القلوب كما أن المطر حياة الأبدان، والظلمات: ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك، والرعد: ما خُوِّفُوا به من الوعيد وذكر النار، والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة، فالكافرون يسدون آذانهم عند قراءة القرآن مخافة ميل القلب إليه؛ لأن الإيمان عندهم كفر، والكفر موت، يكاد البرق يخطف أبصارهم أي: القرآن يبهر قلوبهم، وقيل: هذا مثل ضربه الله للإسلام، فالمطرُ: الإسلام، والظلمات: ما فيه من البلاء والمحن، والرعدُ: ما فيه من الوعيد والمخاوف في الآخرة، والبرق: ما فيه من الوعد.

(يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم)، يعني: أن المنافقين إذا رأوا في الإسلام بلاء وشدة هربوا حذرًا من الهلاك، والله محيط بالكافرين: جامعهم، يعني: لا ينفعهم هربُهُم؛ لأن الله تعالى من ورائهم يجمعهم فيعذبهم.

يكاد البرق، يعني: دلائل الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ما سبق لهم من الشقاوة. قوله تعالى: «كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ» [البقرة: ٢٠]، فكأنهم ينتهزون فرصة الإضاءة ولا يتأخرون عن الإضاءة طرفة عين، كلما أضاء لهم – ولو شيئًا يسيرًا- مشوا فيه، وقيل: معناه كلما نالوا غنيمة وراحة في الإسلام ثبتوا وقالوا: إنا معكما، وإذا أظلم عليهم، يعني: إذا رأوا شدة وبلاء قاموا (أي تأخروا) ووقفوا (أو قعدوا) كما قال الله تعالى: «وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ» [الحج: ١١]. قاله البغوي.

قوله تعالى: «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ» [البقرة: ٢٠] دون أن تحدث الصواعق، ودون أن يحدث البرق؛ لأن الله تعالى على كل شيء قدير، فهو قادر على أن يُذهب السمع والبصر بدون أسباب: فيذهب السمع بدون صواعق، والبصر بدون برق، قال الحسن: «ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم» عقوبة لهم حين أظهروا الإيمان، وأسروا الشرك.

قوله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» [البقرة: ٢٠]، فهو سبحانه قدير قادر مقتدر والقدير أبلغ في الوصف من القادر. قاله الزجاجي. وإنما خص هنا تعالى صفته التي هي القدرة بالذكر دون غيرها، لأنه تقدم ذكر فعل مُضمنهُ الوعيد والإخافة، فكان ذكر القدرة مناسبًا لذلك، والله أعلم. [قاله القرطبي].

الفوائد:

١- من فوائد الآيتين: تهديد الكفار بأن الله محيط بهم ؛ لقوله تعالى: «وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ» [البقرة: ١٩].

٢- ومنها: أن البرق الشديد يخطف البصر، ولهذا يُنهى الإنسان أن ينظر إلى البرق حال كون السماء تبرق، لئلا يخطف بصره.

٣- ومنها: أن من طبيعة الإنسان اجتناب ما يهلكه؛ لقوله تعالى: «وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟» [البقرة: ٢٠].

٤- ومنها: إثبات مشيئة الله؛ لقوله تعالى: «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ» [البقرة: ٢٠].

٥- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يلجأ إلى الله عز وجل أن يمتّعه بسمعه وبصره؛ لقوله تعالى: «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ» [البقرة: ٢٠] وفي الدعاء المأثور: «اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا أبدًا ما أحييتنا». أخرجه الترمذي وحسنه الألباني.

٦- ومنها: أن من أسماء الله أنه «قدير» على كل شيء.

٧- ومنها: عموم قدرة الله تعالى على كل شيء، فهو جل وعلا قادر على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، وعلى تغيير الصالح إلى فاسد، والفاسد إلى صالح، وغير ذلك. والله أعلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

واحة التوحيد

من نور كتاب الله

المسارعة بالتوبة قبل الموت

قال تعالى: «وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» [النساء: ١٨].

من دعائه صلى الله عليه وسلم

عَنْ أَنَس رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: فَقَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُقَلِّبُهَا». [مسند أحمد وصححه الألباني].

من معاني الأحاديث

(طمث) في حديث عائشة رضي الله عنها عن حج الحائض «حتى جئنا سرف طمثت» يقال: طمثت المرأة تطمث طمثًا إذا حاضت، فهي طامث، وطمثت إذا دميت بالافتضاض، والطمث: الدم والنكاح.

[النهاية لابن الأثير].

من أقوال السلف

عن عمران بن خالد قال: قال الحسن: إن المؤمن يصبح حزينًا ويمسي حزينًا، ولا يسعه غير ذلك؛ لأنه بين مخافتين: بين ذنب قد مضى، لا يدري ما الله يصنع فيه، وبين أجل قد بقي، لا يدري ما يصيب فيه من المهالك. [حلية الأولياء ٢/١٣٢].

أحاديث باطلة لها آثار سيئة

(أتانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ونحن مضطجعون في مسجده، فضربنا بعسيب كان في يده، وقال: قوموا، لا ترقدوا في المسجد)، هذا حديث باطل يحرم الاضطجاع في المسجد، والأحاديث في إباحة النوم في المسجد للمحتاج كثيرة، بعضها في «الصحيحين» وغيرهما كما كان الأمر مع أهل الصفة.

[السلسة الضعيفة للألباني].

من الفروق اللغوية

الفرق بين البعث والنشور:

أن بعث الخلق اسم لإخراجهم من قبورهم إلى الموقف، ومنه قوله تعالى «مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا»، والنشور اسم لظهور المبعوثين، وظهور أعمالهم للخلائق، ومنه قولك: نشرت اسمك، ونشرت فضيلة فلان.

[الفروق للعسكري].

اعداد:
علاء خضر

من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

كيف نعالج قسوة القلب

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَجُلاً شَكَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسْوَةَ قَلْبِه، فَقَالَ لَهُ: «إِنْ أَرَدْتَ تَلْيِينَ قَلْبِكَ فَأَطْعِمْ الْمِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ» [مسند أحمد وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٨٥٤].

من فضائل عائشة رضي الله عنها

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن جبريل جاء بصورتها (أي: عائشة رضي الله عنها) في خرقة حرير خضراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: هذه زوجتك في الدنيا والآخرة».

[سنن الترمذي ٣٨٨٠ وصححه الألباني].

حكم ومواعظ

قيل لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما : توفي زيد بن حارثة الأنصاري، فقال: «رحمه الله» قيل له: يا أبا عبد الرحمن، إنه قد ترك مائة ألف. قال: «لكن هي لم تتركه». [الزهد لهناد].

من دلائل النبوة

إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم علي المشركين

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اسْتَقْبَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَعْبَةَ فَدَعَا عَلَى نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى شَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ وَأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، فَأَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ صَرْعَى قَدْ غَيَّرَتْهُمُ الشَّمْسُ، وَكَانَ يَوْمًا حَارًّا.

[صحيح البخاري برقم ٣٩٦٠].

من الطب النبوي

عن سلمى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: ما كان أحد يشتكي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعًا في رأسه إلا قال: احتجم، ولا وجعًا في رجليه إلا قال: اخضبهما.

[سنن أبي داود ٣٨٦٠ وحسنه الألباني].

من مواعظ السلف

عن إبراهيم التيمي قال: مثلت نفسي في الجنة، آكل من ثمارها، وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار، آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أُرَدَّ إلى الدنيا، فأعمل صالحًا، قال: فأنت في الأمنية فاعملي. [صفة الصفوة].



منكرات تقع عند القبور

إعداد/ معاوية محمد هيكل

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد: فقد جاءت الشريعة بحماية جناب التوحيد وصيانة حماه من الأقوال والأفعال التي تفضي بالإنسان إلى الوقوع في الشرك ولذلك كان في صدر الإسلام النهي من النبي صلى الله عليه وسلم عن زيارة القبور، والنهي عام للرجال والنساء، وذلك سدًّا لذريعة الشرك ؛ لقرب عهدهم بالجاهلية، وخشية الافتتان بها، كما افتتن بها أهل الكتابين من اليهود والنصارى، فعظَّموا قبور الأنبياء واتخذوا عليها المساجد، حتى عُبدت من دون الله، فلما تمكن الإيمان في قلوب الصحابة رضوان الله عليهم، واستقرت عقيدة التوحيد في نفوسهم، وتعلقت قلوبهم بالله وحده، أذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بزيارة القبور، فعن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها» [رواه مسلم برقم ٩٧٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صل الله عليه وسلم: «زوروا القبور؛ فإنها تذكِّر الموت» [رواه مسلم برقم ٩٧٥].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صل الله عليه وسلم: «إني نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها؛ فإن فيها عبرة» [أخرجه أحمد ٣٨/٣، وقال الأرنؤوط: صحيح، وهذا إسناد حسن].

بعض المنكرات التي تتعلق بالقبور:

١- النهي عن قول الهُجر عند زيارة القبور:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها؛ فإنها ترق القلب، وتدمع العين، وتذكِّر الآخرة، ولا تقولوا هُجْرًا» [أخرجه الحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٤٥٨٤].

والمراد بالهُجْر: كل قول محظور شرعًا، ويأتي في مقدمة ذلك: الشرك بالله، وسؤال الموتى من دون الله، ودعاء المقبورين والاستغاثة بهم، وطلب المدد منهم، فكل ذلك من الشرك.

قال ابن القيم رحمه الله: (وكان رسول الله قد نهى عن زيارة القبور؛ سدًّا للذريعة، فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه،

ونهاهم أن يقولوا هُجْرًا؛ فمن زارها على غير الوجه المشروع الذي يحبه الله ورسوله؛ فإن زيارته غيرُ مأذونٍ فيها، ومن أعظم الهُجْر الشرك عندها قولاً وفعلاً) [إغاثة اللهفان: ١/ ٢٠٠].

٢- الطواف حول القبور والتوسل بالمقبور:

الطواف عبادة لا تجوز ولا تُشرع إلا بالبيت العتيق باتفاق المسلمين، قال تعالى: «وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» سورة الحج، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من طاف بالبيت سبعًا، وصلى ركعتين، كان كعدل رقبة» [السلسلة الصحيحة للألباني ٢٧٢٥].

قال الشيخ علي محفوظ من كبار علماء الأزهر في كتابه القيم الإبداع في مضار الابتداع ص١٩١: (ومن البدع السيئة: الطواف حول الأضرحة، فإنه لم يُعهد -أي: الطواف- عبادةً إلا بالبيت، وكذا لم يُشرع التقبيل والاستلام إلا للحجر الأسود)

وقد سُئل فضيلة الشيخ حسن مأمون، مفتي الديار المصرية سؤالاً حول الطواف بالأضرحة والتوسل بها، نشرته مجلة الإذاعة المصرية، هذا نصه: ما حكم الشرع في زيارة الأضرحة أضرحة الأولياء، والطواف بالمقصورة وتقبيلها والتوسل بالأولياء؟

الجواب: أود أن أذكر أولاً أن أصل الدعوة الإسلامية يقوم على التوحيد، والإسلام يحارب جاهدًا كل ما يقرّب الإنسان من مزالق الشرك بالله، ولا شك أن التوسل بالأضرحة والموتى، أحد هذه المزالق، وهي رواسب جاهلية، فلو نظرنا إلى ما قاله المشركون عندما نعى عليهم الرسول عبادتهم للأصنام، قالوا له: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)، فهي نفس الحجة التي يسوقها اليوم الداعون للتوسل بالأولياء لقضاء حاجة عند الله، أو التقرب منه.

ومن مظاهر هذه الزيارات: أفعال تتنافى كلية مع عبادات إسلامية ثابتة، فالطواف في الإسلام لم يُشرع إلا حول الكعبة، وكل طواف حول أي مكان آخر، حرامٌ شرعًا، والتقبيل في الإسلام لم يُسَنّ إلا للحجر الأسود، وحتى الحجر الأسود، قال فيه عمر رضي الله عنه وهو يقبّله: (والله لولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما فعلت) فتقبيل الأعتاب أو نحاس الضريح، أو أي مكان به حرام قطعًا.

وعلى ذلك يتضح أن كل زيارة للأضرحة والطواف حولها والتوسل بها، وتقبيل المقصورة والأعتاب، والتوسل بالأولياء، وطلب الشفاعة منهم؛ حرام قطعًا، ومناف للشريعة، وفيه إشراك بالله تعالى .

٣- اتخاذ القُبور مساجد:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما اشتكى (مرض) النبي صلى الله عليه وسلم ذكرت بعض نسائه كنيسة رأتها بأرض الحبشة، يقال لها مارية، وكانت أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما أتتا أرض الحبشة، فذكرتا من حُسنها وتصاوير فيها، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه فقال: (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا، ثم صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله) رواه البخاري وغيره.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد) [رواه أحمد ٣٨٤٢ وحسنه الأرناءوط].

فمن يتأمل الأحاديث الكريمة، يظهر له بصورة لا شك فيها، أن الاتخاذ المذكور حرام، بل كبيرة من الكبائر؛ لأن اللعن الوارد فيها ووصف المخالفين بأنهم شرارُ الخلق عند الله لا يمكن أن يكون في حق من لم يرتكب ما ليس بكبيرة، وقد اتفقت المذاهب الأربعة على تحريم ذلك، ومنهم من صرح بأنه كبيرة.

والاتخاذ المذكور في الأحاديث يشمل عدة أمور:

- الصلاة إلى القبور مستقبلاً لها والسجود على القبور، وبناء المساجد عليها.

٤- الذبح عند القبور:

يحرم الذبح عند القبور وهو من عادات الجاهلية، كما كانت تفعل عند قبور موتاهم، فيذبحون من البقر والغنم، وجاء الإسلام فحرّم الذبح لغير الله تعالى، سواء كان الذبح للقبور أو للجان أو للمشايخ الذين يدعون الولاية والكرامة كذبًا وزورًا، وكل ذبح لتعظيم غير الله أو لجلب خير أو دفع ضر كما يفعله عُباد القبور فهو شرك أكبر، والذبيحة عند القبر ميتة لا تؤكل، ولا تزال رواسب الجاهلية ومخلفاتها في نفوس الكثير من الناس؛ لفرط جهلهم بالملة الحنيفية؛ ملة إبراهيم عليه السلام، وفي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي قال: (لا عَقْرَ في الإسلام) [أبو داود ٣٢٢٤ وصححه الألباني].

وقال عبد الرزاق: (كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة) [نيل الأوطار ٤/ ١٤٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ولأن الذبح لغير الله أو باسم غيره قد علمنا يقينًا أنه ليس من دين الأنبياء عليهم السلام، فهو من الشرك الذي أحدثوه) [اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٥٦].

قال تعالى: «قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

قال ابن كثير في تفسيره: (يأمره الله تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغير اسمه: أنه مُخالفٌ لهم في ذلك، فإن صلاته لله، ونُسكه -أي ذبحه ونذره- على اسمه وحده لا شريك له، أي: أَخْلص له صلاتك وذبحك؛ فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم) [تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٢].

وفي الحديث عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله بأربع كلمات؛ قال: (لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من آوى محدثًا، ولعن الله من غَيَّرَ منار الأرض) [رواه مسلم برقم ١٩٧٨].

٥- شد الرحال إليها:

عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا» [متفق عليه].

فالسفر إلى هذه المساجد الثلاثة للصلاة فيها، والدعاء والذكر، والاعتكاف من الأعمال الصالحة، وما سوى هذه المساجد لا يُشرع السفر إليه باتفاق أهل العلم.

قال ابن تيمية: «وقد زيَّن الشيطان لكثير من الناس سوء عملهم، واستزلَّهم عن إخلاص الدين لربهم إلى أنواع من الشرك، فيقصدون بالسفر والزيارة رضا غير الله، والرغبة إلى غيره، ويشدون الرحال؛ إما إلى قبر نبي أو عبدٍ صالح، داعين له راغبين إليه، ومنهم من يظنّ أن المقصود من الحج هو هذا، ومنهم من يرى أن ذلك أنفع له من حج البيت، ومن شيوخهم من يقصد الحج، فإذا وصل إلى المدينة رجع مكتفيًا بزيارة القبر وظن أن هذا أبلغ». [اقتضاء الصراط المستقيم: ص٤٥٧].

قال ابن القيم: «وقدْ آل الأمر بهؤلاء الضُلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجًا، ووضعوا له مناسك حتى صنَّف بعضُ غلاتهم في ذلك كتابًا سمّاه (مناسك حج المشاهد)؛ مضاهاةً منه بالقبور للبيت الحرام، ولا يخفى أن هذا مفارقةٌ لدين الإسلام، ودخولٌ في دين عُبّاد الأصنام» [إغاثة اللهفان: ١/١٩٧].

٦- اتخاذ القبور أعيادًا:

وذلك بأن تُقصد في أوقات معينة، ومواسم معروفة للتعبد عندها، وجاء النهي عن ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» [رواه أبو داود ٢٠٤٤ وصححه الألباني].

ووجه الدلالة من الحديث: أن قبر النبي صلى الله عليه وسلم أفضل قبر على وجه الأرض، وقد نهى عن اتخاذه عيدًا؛ فقبر غيره أولى بالنهي كائنًا من كان، ثم إنه قرن ذلك بقوله: (ولا تتخذوا بيوتكم قبورًا)، أي: لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور؛ فأمر بتحري العبادة في البيوت، ونهى عن تحريها عند القبور» [اقتضاء الصراط المستقيم ١/٣٢٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «فمن مفاسد اتخاذ القبور أعيادًا: الصلاة إليها، والطواف بها، وتقبيلها، واستلامها، وتعفير الخدود على ترابها، وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الديون، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عُبّاد الأوثان يسألونها أوثانهم» [إغاثة اللهفان، ص١٩٤].

٧- إيقاد السُّرُج عندها:

ويحرم تسريج القبور، أي: إنارتها بالشموع وغيرها؛ للنهي الصريح عن ذلك، ولما فيه من إضاعة المال، وإنفاقه في الحرام؛ طاعةً للشيطان، كما أن فيه تشبهًا بالمجوس عُباد النار، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج» [رواه أحمد والترمذي، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند ٥/٤٧].

قال ابن القيم: قال أبو محمد المقدسي: ولو أُبيح اتخاذ السُّرُج على القبور لم يلعن النبي صلى الله عليه وسلم من فعله، ولأن فيه تضييعًا للمال بدون فائدة، وإفراطًا في تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام. [إغاثة اللهفان، ص١٩٧].

ونقل شارح فتح المجيد عن الشيخ محمد بن إسماعيل الصنعاني قوله: «فإن هذه القباب والمشاهد قد صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد، فقد شُيد على القبور البناء، وسُرجت عليها الشموع، وأُرخيت عليها الستور؛ فيعتقد أن ذلك لجلب خير أو لدفع ضر ».(فتح المجيد ص٢٣٨].

٨- البناء عليها وتجصيصها والكتابة عليها:

عن جابر رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله أن يُجَصَّص القبر، وأن يُقْعَد عليه، وأن يُبْنَى عليه» [رواه مسلم برقم ٩٧٠].

وقد أمرنا بهدم ما بُني عليها من مشاهد وقباب وأضرحة، فعن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله، أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته» [رواه مسلم برقم ٩٦٩]. وهذا الأمر خاصة مسند إلى أولياء الأمر وليس لآحاد الناس.

وعن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله أن تُجَصَّص القبور، وأن يُكتب عليها وأن يُبنى عليها، وأن توطأ» [رواه الترمذي ١٠٥٢، وصححه الألباني].

حكم الصلاة في المساجد المبنية على القبور

عن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه قال: قال رسول الله: (لا تصلوا إلى القبور، ولا تجلسوا عليها) [رواه مسلم ٩٧٢].

عن أنس رضي الله عنه أن النبي نهى عن الصلاة بين القبور. رواه البزار وصححه الألباني.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «اتفق الأئمة أنه لا يُبنى مسجد على قبر؛ لأن النبي قال: (إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك) رواه مسلم، وكما أنه لا يجوز دفن ميت في مسجد، فإذا كان المسجد قبل الدفن غُيِّر، إما بتسوية القبر، وإما بنبشه إن كان جديدًا، وإن كان المسجد بُني بعد القبر؛ فإما أن يزال المسجد، وإما أن تُزال صورة القبر، فالمسجد الذي على القبر لا يُصلى فيه فرض ولا نفل، فإنه منهي عنه) [مجموع الفتاوى ٢٢/ ١٩٤].

وقال الشيخ الألباني رحمه الله: «أما شمول الأحاديث للنهي عن الصلاة في المساجد المبنية على القبور، فدلالتها على ذلك أوضح؛ وذلك لأن النهي عن بناء المساجد على القبور يستلزم النهي عن الصلاة فيها، من باب النهي عن الوسيلة، ويستلزم النهي عن المقصود بها، والمتوصل بها إليه، مثاله إذا نهى الشارع عن بيع الخمر، فالنهي عن شربه داخل في ذلك كما لا يخفى، بل النهي عنه من باب أولى.

ومن البيِّن جدًا أن النهي عن بناء المساجد على القبور ليس مقصودًا بالذات، كما أن الأمر ببناء المساجد في الدور والمحلات ليس مقصودًا بالذات، بل ذلك كله من أجل الصلاة فيها، يوضح ذلك المثال الآتي: لو أن رجلاً بنى مسجدًا في مكان قَفْر غير مأهول، ولا يأتيه أحد للصلاة فيه، فليس لهذا الرجل أي أجر في بنائه لهذا المسجد، بل هو عندي آثم لإضاعته المال، ووضعه الشيء في غير محله.

فإذا أمر الشارع ببناء المساجد، فهو يأمر ضمنًا بالصلاة فيها؛ لأنها هي المقصودة بالبناء، وكذلك إذا نهى عن بناء المساجد على القبور فهو ينهى عن الصلاة فيها؛ لأنها هي المقصودة بالبناء أيضًا، وهذا بيِّن لا يخفى على العاقل، إن شاء الله تعالى». [تحذير الساجد، ص١٣٧].

وأوضح الشيخ صالح الفوزان -حفظه الله في كتابه إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد- دليل بطلان الصلاة عند القبور، أو في المساجد المبنية على القبور؛ وذلك لأن الرسول نهى عن ذلك، والنهي يقتضي الفساد عند الأصوليين، فالذي يصلي عند القبر صلاته غير صحيحة، فعليه أن يعيد الفريضة؛ لأن صلاته عند القبر أو في المسجد المبني عليه القبر غير صحيحة؛ لأنها صلاة منهيّ عنها، والصلاة المنهي عنها غير مشروعة، فلذلك لا تصح.

والله من وراء القصد.

دراسات شرعية

أثر السياق في فهم النص

ضوابط الفروق بين البدعة والمصلحة المرسلة

الحلقة ٤٧

إعداد/ متولي البراجيلي

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعدُ:

لا يزال حديثنا متصلاً حول قواعد البدع، وقد ذكرنا منها إحدى عشرة قاعدة، ونستأنف البحث:

القاعدة الثانية عشرة: فعل العبادة على غير الصفة التي وردت بها يُعتبر بدعة:

إذا وردت العبادة بصفة معينة، فيجب فعلها على تلك الصفة، ولا يجوز فعلها على صفة غير التي وردت بها.

أمثلة ذلك:

المثال الأول: التلحين والتطريب في الأذان:

وقد كان السلف ينكرون ذلك، فقد أخرج عبد الرزاق في «المصنف»: باب البغي في الأذان، والأجر عليه، وابن عدي في «الكامل» بسنديهما عن يحيى البكاء قال: رأيت ابن عمر يسعى بين الصفا والمروة ومعه ناسٌ، فجاءه رجل طويل اللحية، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني لأحبك في الله، فقال ابن عمر: لكني أبغضك في الله، فكأن أصحاب ابن عمر لاموه في ذلك وكلموه، فقال: إنه يبغي في أذانه، ويأخذ عنه أجرًا. [مصنف عبد الرزاق ح١٨٥٢، الكامل لابن عدي ١٥/٩].

وكذلك أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الضحاك بن قيس: أن رجلاً قال: إني لأحبك في الله، قال له: ولكني أبغضك في الله، قال: لِمَ؟ قال: إنك تبغي في أذانك. [مصنف عبد الرزاق ح١٨٥٣].

قال ابن الأثير: موضحًا معنى البغي في الأذان: أراد التطريب فيه والتمديد، من تجاوز الحد. [النهاية في غريب الحديث والأثر ١٤٤/١].

[فائدة: السند الأول فيه يحيى البكّاء، وهو ضعيف، قال ابن عدي: «ويحيى البكاء هذا، ليس بذاك المعروف، وليس له كثير رواية». [الكامل: ١٥/٩].

وقال عنه الحافظ ابن حجر: ضعيف. [التقريب: ت٧٦٤٥].

أما السند الثاني: ففيه قتادة، وهو مدلس وقد عنعنه، بالإضافة إلى أنه لم يدرك الضحّاك بن قيس؛ حيث إن قتادة وُلد سنة (٦١هـ)، وتُوفي الضحاك بن قيس سنة (٦٥هـ)، وهذا شاهد على الانقطاع في السند].

فلا ينبغي للمؤذن أن يبالغ في التلحين والتمطيط والمد؛ بحيث يملّ السامع من متابعة الأذان، وربما خرج به عن معناه إلى معنى آخر.

وقد أخرج البخاري في كتاب الأذان، باب: رفع الصوت بالنداء: وقال عمر بن عبد العزيز للمؤذن: أذّن أذنًا سمحًا وإلا فاعتزلنا. [صحيح البخاري ١٢٥/١].

قال الحافظ ابن حجر: «... والظاهر أنه خاف عليه من التطريب الخروجَ عن الخشوع، لا أنه نهاه عن رفع الصوت». [فتح الباري ٢/٨٨].

[والأذان السمح: أي السهل بلا نغمات ولا تطريب مبالغ فيه].

المثال الثاني: التثويب في غير صلاة الفجر:

التثويب: هو أن يقول المؤذن في صلاة الفجر: (الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم) وهو سُنة مشروعة عند جمهور أهل العلم.

وقد وردت في ذلك أحاديثُ كثيرة صحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم، منها: ما جاء عن أبي محذورة - رضي الله عنه - قال: ألقي عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأذان حرفا حرفا: الله أكبر الله أكبر... إلى آخر الأذان، وفيه: وكان يقول في الفجر: «الصلاة خير من النوم». [صحيح سنن أبي داود وغيره].

فصفة الأذان في كل الأوقات ليس فيها التثويب، إلا ما ورد في صلاة الفجر فقط، فلا يجوز إضافته لأي أذان آخر، وإلا صار بدعة.

فعن مجاهد قال: كنت مع ابن عمر فثوّب رجل في الظهر أو العصر، قال: اخرج بنا؛ فإن هذه بدعة. [صحيح سنن أبي داود].

المثال الثالث: الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم جهرًا بعد الأذان:

ثبتت مشروعية الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان، ففي الحديث عن عبد الله بن عمرو أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة. [صحيح مسلم].

لكن الصفة التي يأتي بها بعض المؤذنين، من الجهر بالصلاة على النبي بعد الأذان في مكبرات الصوت، حتى صارت كأنها من ألفاظ الأذان، بدعة مذمومة، فأصل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان سُنة، ولكن الصفة والكيفية بدعة.

قال الحافظ ابن حجر الهيتمي: «قد أحدث المؤذنون الصلاة والسلام على رسول الله عقب الأذان للفرائض الخمس، إلا الصبح والجمعة؛ فإنهم يقدّمون ذلك فيهما على الأذان، وإلا المغرب فإنهم لا يفعلونه غالبًا لضيق وقتها، وكان ابتداء حدوث ذلك في أيام السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب، وبأمره في مصر وأعمالها».

ثم أشار إلى أن صلاح الدين أمر بذلك؛ لأنهم كانوا يسلّمون بعد الأذان على الخليفة الذي يتولى الحكم، فأبطل ذلك صلاح الدين، وجعل بدله الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أشار إلى بدعية ذلك، فقال: «ولقد استُفتي مشايخنا وغيرهم في الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم بعد الأذان على الكيفية التي يفعلها المؤذنون، فأفتوا بأن الأصل سُنة والكيفية بدعة». [الفتاوى الفقهية الكبرى لابن حجر الهيتمي ١/١٢١].

القاعدة الثالثة عشرة: فعل العبادة على غير السبب الذي وردت من أصله يعتبر بدعة:

فالعبادة التي وردت لسببٍ ما، لا يُشرع فعلها إذا لم يوجد ذلك السبب.

أمثلة ذلك:

المثال الأول: رفع السبَّابة عند تشهد المؤذن:

رفع السبابة مشروع عند الجلوس للتشهد في الصلاة، فعن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قعد يدعو، وضع يده اليمنى على فخذه اليمنى، ويده اليسرى على فخذه اليسرى وأشار بأصبعه السبّابة، ووضع إبهامه على إصبعه الوسطى، ويلقم كفه اليسرى ركبته. [صحيح مسلم].

وعن نافع قال: كان عبد الله بن عمر إذا جلس في الصلاة، وضع يديه على ركبتيه، وأشار بأصبعه وأتبعها بصره، ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لهي أشد على الشيطان من الحديد. [مسند أحمد، وقال الألباني في المشكاة: حسن].

- لكن البعض عند سماع المؤذن يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله»، فإنه يرفع السبّابة بالتوحيد، وهذا لا نعلم له دليلاً على ثبوته عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيصير بدعة.

المثال الثاني: القيام عند سماع الأذان:

بعض الناس يجعل الأذان سببًا لقيامه عند الاستماع إليه، وهذا السبب ليس له أصل في السنة، فالسنة في الأذان هي الاستماع إليه، والترديد خلفه، ثم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والدعاء الثابت عنه صلى الله عليه وسلم، أما من قالوا بالقيام عند استماع الأذان وقولهم: إن هذا تعظيم لله عز وجل، فهذا مما لا أصل له، فيصير بدعة.

لان الحديث الذي ورد فيه هذا المعنى وهو حديث عثمان بن عفان مرفوعاً «اذا سمعتم النداء فقوموا فانها عزمة من الله » [اخرجة ابو نعيم في الحلية] وهو حديث لا يصح لان فيه الوليد بن سلمة وهو ممن يضع الحديث علي الثقات.

المثال الثالث: الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد العطس:

ويجعل العطس سببًا للصلاة على رسول الله

صلى الله عليه وسلم، وليس هذا بسبب مشروع، بل المشروع هو ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه - أو صاحبه - يرحمك الله: فإذا قال له يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم». [صحيح البخاري].

لذا أنكر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما على من عطس عنده، وزاد على ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فعن نافع أن رجلاً عطس عند عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - فقال: الحمد لله والسلام على رسول الله، فقال ابن عمر: وأنا أقول: الحمد لله والسلام على رسول الله، ولكن ليس هكذا علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. [مستدرك الحاكم ح٧٦٩١].

وقال السيوطي: «... لأن العطاس ورد فيه ذكر يخصّه، فالعدول إلى غيره، أو الزيادة فيه؛ عدول عن المشروع وزيادة عليه، وذلك بدعة ومذموم، فلما كان الوارد في العطاس الحمد فقط، كان ضم السلام إليه من الزيادة في الأذكار، وذلك متفق على ذمّه...» [الحاوي للفتاوى للسيوطي ٢٩٩/١].

المثال الرابع: صلاة الاستخارة:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها؛ كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال في عاجل أمري وآجله- فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال في عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضّني به. قال: ويسمي حاجته. [صحيح البخاري].

فالاستخارة مشروعة، كما هو معلوم، إنما الكلام في سببها، فإن سببها أن تكون في الأمور التي آثار عواقبها غير ظاهرة وواضحة كالنكاح مثلاً، لكن لا تُشرع لأمور آثار عواقبها ظاهرة وواضحة، فإن ذلك يعتبر من البدع.

ففي الموسوعة الفقهية: «اتفقت المذاهب الأربعة على أن الاستخارة تكون في الأمور التي لا يدري العبد وجه الصواب فيها، أما ما هو معروف خيره أو شره كالعبادات وصنائع المعروف والمعاصي والمنكرات، فلا حاجة إلى الاستخارة فيها، إلا إذا أراد بيان خصوص الوقت كالحج مثلاً في هذه السنة، لاحتمال عدو أو فتنة، والرفقة فيه، أو يرافق فلانًا أم لا؟

وعلى هذا فالاستخارة لا محل لها في الواجب والحرام والمكروه، وإنما تكون في المندوبات (المستحبات) والمباحات.

والاستخارة في المندوب لا تكون في أصله؛ لأنه مطلوب (مأمور به شرعًا)، وإنما تكون عند التعارض، أي إذا تعارض عنده أمران أيهما يبدأ به أو يقتصر عليه؟ أما المباح فيُستخار في أصله.

وهل يستخير في معيّن (بمعنى أنه يحدد ما يراد أن يستخير فيه) أو مطلق (يستخير دون تحديد لمسألته)؟ اختار بعضهم الأول؛ لظاهر الحديث». [الموسوعة الفقهية ٢٤٢/٣]. انظر التعليق حول بعض فوائد صلاة الاستخارة بعد نهاية المقال.

القاعدة الرابعة عشرة: لا يُشرع التقرب إلى الله بالمباحات (بمعنى اتخاذها واجبًا أو مستحبًا).

المباح: هو ما كان الخطاب فيه بالتخيير بين الفعل والترك، فلم يثب على فعله، ولم يعاقب على تركه، كالأكل والنوم والاغتسال للتبرد.

وهذا هو المباح المجرد عن نية، أما إذا أتى العبد المباح مقرونًا بنية صالحة، فهو مأجور على ذلك، فالأجر يقع على النية، وليس على المباح بمفرده، فلو نوى الإنسان فعل المباحات بقصد الانتفاع بنعم الله عليه، فإن ذلك سبب للثواب.

ففي الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وفي بُضع (فرج) أحدكم صدقة». قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر. [صحيح مسلم].

ومثله أن ينام الإنسان في النهار بلا نية، فهذا لا أجر فيه، ولا يتقرب به إلى الله تعالى، بينما لو نوى بنومه التقوّي على قيام الليل، فهذا يُثاب على تلك النومة، لا لذات النومة، ولكن لما اقترن معها من نية صالحة.

يقول معاذ رضي الله عنه: أما أنا فأنام وأقوم؛ أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي. [متفق عليه].

فمعنى القاعدة: أننا لا نتخذ المباح واجبًا أو مستحبًا، فهذا تشريع لم يأذن به الله، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به، وهو أن المباحات إنما تكون مباحة، إذا جُعلت مباحات، فأما إذا اتُّخذت واجبًا أو مستحبات كان ذلك دينًا لم يشرِّعه الله، وجعل ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعل ما ليس من

المحرمات منها، فلا حرام إلا ما حرّمه الله، ولا دين إلا ما شرعه الله، ولهذا عظم ذم الله في القرآن لمن شرّع دينًا لم يأذن الله به...».

ثم قال: «إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل: إنه قُربة وطاعة وبرّ وطريق إلى الله واجب أو مستحب، إلا أن يكون مما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك يُعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك، وما عُلم باتفاق الأمة أنه ليس بواجب ولا مستحب ولا قُربة لم يجز أن يُعتقد أو يُقال: إنه قربة وطاعة. وقال: وبإهمال هذا الأصل غلط خلق كثير من العلماء والعُباد». [مجموع الفتاوى ١١/٤٥٠- ٤٥١].

وللحديث بقية إن شاء الله.

فوائد حول الاستخارة:

١- الاستخارة هي التبرؤ من الحول والقوة وردُّ الأمور كلها لله، ففيها الإذعان لله والافتقار إليه والالتزام لذلة العبودية له، وفيها التبرك بسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

٢- النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلّمهم الاستخارة كما يعلّمهم السورة من القرآن، وفي ذلك حرص النبي صلى الله عليه وسلم على النصح لأمته وإرادة الخير لها، وفيه شدة الحاجة إلى الاستخارة؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان يعلّمهم دعاءها كما يعلمهم السورة من القرآن.

٣- في الحديث ردٌّ على القدرية الذين يزعمون أن الله تعالى لا يخلق الشر، فقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى هو المالك للشر والخالق له؛ إذ هو المدعو لصرفه عن العبد، ومُحال أن يسأله العبد أن يصرف عنه ما يملكه العبد من نفسه، أو ما لا يملكه الله تعالى.

٤- لا يشترط للاستخارة رؤيا منامية، بل تتوجه إلى ما ينشرح له صدرك.

٥- في قوله: «في الأمور كلها»: قال ابن أبي جمرة هو عام أريد به الخصوص، فإن الواجب والمستحب لا يُستخار في فعلهما، والحرام والمكروه لا يُستخار في تركهما، فانحصر الأمر في المباح وفي المستحب إذا تعارض منه أمران أيهما يبدأ به ويقتصر عليه...

قال الحافظ ابن حجر: ويتناول العموم: العظيم من الأمور والحقير، فرُبّ حقير يترتب عليه الأمر العظيم. [فتح الباري ١١/١٨٤].

٦- هل يشترط ركعتان مخصوصتان للاستخارة؟

قال النووي في الأذكار: لو دعا بدعاء الاستخارة عقب راتبة الظهر مثلاً أو غيرها من النوافل الراتبة والمطلقة، سواء اقتصر على ركعتين أو أكثر أجزأ. [والشافعية هم من أجازوا الاستخارة بأكثر من ركعتين، واعتبروا التقييد بالركعتين لبيان أقل ما يحصل به. الموسوعة الفقهية ٣/٢٤٤].

وتعقّبه الحافظ ابن حجر فقال: وفيه نظر، ويظهر أن يقال: إن نوى تلك الصلاة بعينها (أي الراتبة أو المطلقة) وصلاة الاستخارة معًا أجزأ، بخلاف ما إذا لم ينوِ. [فتح الباري ١١/١٨٥].

٧- في قوله: «إذا همَّ أحدكم: يشير إلى أول ما يرد على القلب يستخير، فيظهر له ببركة الصلاة، والدعاء ما هو خير، بخلاف ما إذا تمكّن الأمر عنده وقويت فيه عزيمته وإرادته؛ فإنه يصير إليه ميلٌ وحب فيخشى أن يخفى عليه وجه الأرشدية لغلبة ميله إليه». [السابق].

٨- الاستخارة مستحبة وليست واجبة، قال العراقي: ولم أجد من قال بوجوب الاستخارة. [نيل الأوطار ٣/٨٨].

٩- هل تكرر صلاة الاستخارة؟

قال العراقي: الظاهر الاستحباب. وقد ورد في حديث: تكرار الاستخارة سبعًا. [وهو حديث غير صحيح].

نعم قد يُستدل للتكرار بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا دعا ثلاثًا، وهذا وإن كان (الحديث) المراد به تكرار الدعاء في الوقت الواحد، فالدعاء التي تُسنُّ الصلاة له تكرر الصلاة له كالاستسقاء. [نيل الأوطار ١/٨٩- ٩٠].

وذهب إلى تكرارها إذا أراد ثلاثًا، الشيخ ابن عثيمين في شرح رياض الصالحين (٤/١٦٢، ١٦٣).

١٠- لا يستخير في أوقات النهي عن الصلاة: بعد العصر، وقبل الظهر، وبعد الفجر، إلا لو كانت هناك ضرورة ويحتاج إلى التعجل في الاستخارة.

١١- موطن دعاء الاستخارة:

قال الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة: يكون الدعاء عقب الصلاة، وهو الموافق لما جاء في نص الحديث الشريف. وجوّز بعض الشافعية والمالكية جوازه في أثناء الصلاة في السجود، وبعد التشهد.

١٢- النيابة والاستخارة:

الاستخارة للغير قال بجوازها المالكية والشافعية؛ أخذًا من قوله صلى الله عليه وسلم: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه». [صحيح مسلم]. (الموسوعة الفقهية ٣/٢٤٦).

١٣- الاستخارة هي البديل الشرعي عن التوجه إلى المنجّمين والسحرة والكهنة، يقول ابن القيم: فعوّض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته بهذا الدعاء عما كان عليه أهل الجاهلية من زجر الطير والاستقسام بالأزلام.. ثم قال: وعوّضهم بهذا الدعاء الذي هو توحيد وافتقار وعبودية وتوكل وسؤال لمن بيده الخير كله. [زاد المعاد ٢/٤٠٥].

[redacted]

المؤهلات التي أهلت الصحابة - رضي الله عنهم - لقيادة البشرية

مؤهلات النصر في جيل الصحابة

الحلقة الثالثة

إعداد/ د. أحمد فريد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما بعد:

فما يزال الحديث مستمرًا عن مؤهلات النصر في جيل الصحابة -رضي الله عنهم-:

١ - اتهامهم لأنفسهم دائمًا بالتقصير:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[يوسف: ٥٣].

فهذا أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- يدخل عليه عمر يومًا وهو يمسك بلسانه، فيقول له: «مه! غفر الله لك»، فيرد عليه أبو بكر قائلاً:» إن هذا أوردني شر الموارد» يعني لسانه.

وهذا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لما طُعن كان ولده عبد الله يضع رأسه في حجره، فإذا أفاق قال لابنه:» ضع رأسي على الأرض لا أمّ لك، وَيْلي إن لم يغفر لي ربي».

وهذا عمران بن حصين -رضي الله عنه- يدخل عليه بعض أصحابه، وكان قد ابتُلي في جسده، فيقول له نفر منهم: إنا لَنَبْأس [نحزن] لك لما نرى فيك. قال:» فلا تبتئس بما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[الشورى: ٣٠].

وهذا أبو الدرداء -رضي الله عنه- يصيبه المرض، ويدخل عليه أصحابه ليعودوه، ويقولون له: أي شيء تشتكي؟ فيقول: ذنوبي. فيقولون: أي شيء تشتهي؟ فيقول: الجنة.

وهذه أسماء بنت أبي بكر كانت تُصْدَع، فتضع يدها على رأسها، وتقول: «بذنبي وما يغفره الله أكثر». [انظر هذه الآثار في مصنف ابن أبي شيبة (١٣/ ٣٠٩) وحلية الأولياء لأبي نعيم (١/٢١٨)].

٢ - استعلاء الإيمان في قلوبهم:

قال أبو الحسن الندوي: « وكأن هذا الإيمان بالله رفع رأسهم عاليًا، وأقام صفحة عنقهم، فلن تنحني لغير الله أبدًا، لا لملك جبار، ولا لحبر من الأحبار، ولا لرئيس ديني ولا دنيوي، وملأ قلوبهم وعيونهم بكبرياء الله تعالى وعظمته، فهانت وجوه الخلق، وزخارف الدنيا ومظاهر العظمة والفخفخة؛ فإذا نظروا إلى الملوك وحشمتهم وما هم فيه من ترف وزينة؛ فكأنهم ينظرون إلى صورة ودمية قد كُسيت ملابس الإنسان.

عن أبي موسى -رضي الله عنه- قال: «انتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه، وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره، والقسيسون جلوس صامتين، وقد قال له عمرو وعمارة: إنهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان أن اسجدوا للملك، فقال جعفر: لا نسجد إلا لله». [ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ (ص: ١٣٣)].

٣- تزكية نفوسهم بالعبادات:

ووعى الصحابة أيضا ما قرره القرآن الكريم، وطبّقه الرسول الأمين محمد صلى الله عليه وسلم عمليًا من أن تطهير النفس وتزكيتها هما أساس التغيير والنجاح والنصر المنشود في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة؛ إذ يقول الله عز وجل في كتابه: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا) [الشمس:٩]، وقال جل وعلا: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ) [الأعلى: ١٤-١٥].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تتورم قدماه من طول القيام [أخرجه البخاري]، وكان يقول: «وجُعلت قرة عيني في الصلاة». [رواه النسائي (٣٩٤٠) وصححه الألباني].

وعى الصحابة - رضوان الله عليهم - جميعًا ذلك، فعملوا جاهدين على تمثله في أنفسهم بحيث صار واقعًا حيًا ملموسًا يتحرك في دنيا الناس، وتتحدث عنه كتب التراجم والسير والتواريخ، وتتناقله الأعداء في مجالسهم الخاصة والعامة وفي كتبهم.

فهذا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كان يصلي من الليل ما شاء الله أن يصلي، حتى إذا كان في آخر الليل أيقظ أهله للصلاة، ثم يقول لهم: «الصلاة»، ويتلو هذه الآية: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ) [طه:١٣٢].

وعن نافع قال: «كان ابن عمر -رضي الله عنهما- يحيي الليل صلاةً، ثم يقول: يا نافع! أسحرنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاة، ثم يقول: يا نافع! أسحرنا؟ فأقول: نعم، فيقعد، ويستغفر، ويدعو حتى يصبح».

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- يختم القرآن في ثلاث، وواظب على ذلك وهو طاعن في السن حتى أدركته الوفاة!!

٤- ثباتهم أمام المطامع والشهوات:

لا شك أن قوة الإيمان في قلب العبد تجعله يترفع عن شهوات الدنيا وأغراضها الدنية، فيصون العرض ويؤدي الأمانة، ويعف عن الغلول.

قال الطبري في «تاريخه»: «لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال -والذين معه-: ما رأينا مثل هذا قط، وما يعدله ما عندنا ولا يقاربه، فقالوا: هل أخذت منه شيئًا؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به. فعرفوا أن للرجل شأنًا فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله! لا أخبركم لتحمدوني، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه، فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه، فسألهم عنه: فإذا هو عامر بن عبد قيس». [تاريخ الطبري (١٩/٤)].

٥- حرصهم على الأخذ بأسباب القوة:

عملاً بقول الله عز وجل: (وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) [الأنفال: ٦٠].

وقوله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف». [أخرجه مسلم ٢٦٦٤].

وقوله صلى الله عليه وسلم: « ارموا بني إسماعيل؛ فإن أباكم كان راميًا ...». [رواه البخاري (٢٨٩٩)].

وصارع النبي صلى الله عليه وسلم ركانة وكان ركانة من أشد الناس لا يُصرع، وسابق بين الخيل. [رواه مسلم (٢٦٦٤)].

يقول سلمة بن الأكوع -رضي الله عنه-: «بينما نحن نسير وكان رجل من الأنصار لا يُسبق شدًا، فجعل يقول: ألا متسابق إلى المدينة؟ هل من مسابق؟ فجعل يعيد ذلك. فقلت: أما تُكرم كريمًا ولا تهاب شريفًا؟ قال: لا، إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قلت: يا رسول الله بأبي وأمي ذرني فلأسابق الرجل قال:» إن شئت»، فسبقته إلى المدينة». [أبو داود (٢٥٦١) وصححه الألباني].

وهذا سعد بن أبي وقاص كان يقول لبنيه:» أي بني! تعلموا الرماية؛ فإنها خيرُ لعبكم».

وكان عقبة بن عامر يختلف بين الغرضين، فقيل له: تفعل هذا وأنت كبير يشق عليك؟ قال عقبة: لولا كلام سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أعانه.

قال الحارث: فقلت لابن شماسة: وما ذاك؟ قال: إنه قال: «من علم الرمي ثم تركه فليس منا» أو: «قد عصى» [أخرجه مسلم].

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح أن عَلِّم غلمانك العوم، ومقاتلتكم الرميَ فكانوا يختلفون في الأغراض، فجاء سهم غرب فقتل غلامًا وهو في حجر خال له لا يُعلم له أهل، فكتب أبو عبيدة إلى عمر: إلى من أدفع عقله؟ فكتب إليه عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول:» إن الله ورسوله مولى من لا مولى له، والخال وارث من لا وارث له». [رواه أحمد (١٩٠)، وصححه أحمد شاكر (٣٢٣)].

٦- استنصارهم بالله عز وجل وطلبهم العزة بما أعزهم الله به:

فقد كان من هدي الصحابة الكرام أنهم يطلبون النصر من الله عز وجل؛ عملاً بقول الله عز وجل: (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [الأنفال:١٠].

أخرج ابن عبد الحكم عن زيد بن أسلم قال: «لما أبطأ على عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فتح مصر، كتب إلى عمرو بن العاص -رضي الله عنه-: «أما بعد لقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، تقاتلونهم منذ سنين، وما ذاك لما أخذتم وأحببتم من الدنيا

ما أحب عدوكم، وإن الله تعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل ما أعرف إلا أن يكون غيَّرهم ما غيَّر غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا، فاخطب الناس، وحضّهم على قتال عدوهم، ورغّبهم في الصبر والنية، وقدّم أولئك الأربعة في صدور الناس، وأمر الناس أن يكونوا لهم صدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة؛ فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ووقت الإجابة، وليعج الناس إلى الله[أي يرفعون أصواتهم]، وليسألوه النصر على عدوهم».

فلما أتى عمرًا الكتابُ جمع الناس وقرأه عليهم، ثم دعا أولئك النفر، فقدّمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين، ثم يرغبون إلى الله ويسألونه النصر ففتح الله عليهم».

وعن عياض الأشجعي قال: «شهدت اليرموك، وعليها خمسة أمراء: أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض -رضي الله عنهم-، وليس عياض هذا الذي حدّث - فقال: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة فكتبنا إليه: أنه قد جاش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا: أنه قد جاءني كتابكم تستمدوني وإني أدلكم على من هو أعز نصرًا وأحضر جندًا؛ الله عز وجل فاستنصروه، فإن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد نُصر يوم بدر في أقل من عدتكم.

وكان عمر رضي الله عنه يقول لأبي عبيدة رضي الله عنه: «إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به؛ أذلنا الله». [رواه الحاكم (٦١/١) وصححه ووافقه الذهبي].

٧- ثقتهم بنصر الله عز وجل:

قال الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبث عناصر الثقة في قلوب رجاله، ويفيض عليهم مما أفاضه الله على فؤاده من أمل رحيب في انتصار الإسلام، وانتشار مبادئه، وزوال سلطان الطغاة أمام طلائعه المظفرة في المشارق والمغارب، وقد اتخذ المستهزئون من هذه الثقة مادة لسخريتهم وضحكهم، فكان الأسود بن عبد المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتغامزون بهم، ويقولون: قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون غدًا على ملك كسرى وقيصر، ثم يصفرون». [فقه السيرة للغزالي (ص:١١٣)].

ولقد كانت الآيات القرآنية تنزل بمكة تبشّر بانتصار الإسلام والصحابة -رضي الله عنهم- يُعذبون في ربوع مكة، فنزل قول الله عز وجل في سورة الروم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم ١-٥].

وبشرت الآيات كذلك بهزيمة المشركين، وانكسار شوكتهم؛ فنزل قوله تعالى عز وجل: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥].

وهُزمت جموع المشركين في أول لقاء بين الكفر والإيمان في يوم الفرقان يوم التقى الجمعان كما بشّر الله عز وجل، وبشّر رسوله صلى الله عليه وسلم بانتصار الإيمان، وغلبة جنده في كل زمان ومكان، فقال عز وجل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها». [مسلم (٢٨٨٩)].

وقال صلى الله عليه وسلم: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل عزًّا يعز الله به الإسلام وذلًا يذل الله به الكفر». [رواه أحمد (٤ / ١٠٣) والحاكم (٤/٤٣٠- ٤٣١) وصححه الألباني في الصحيحة].

فكان من ثقة الصحابة الكرام بنصر الله عز وجل يتهمهم المنافقون بالغرور؛ قال تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: ٤٩].

فهذا خالد بن الوليد -رضي الله عنه- يقول للروم وقد تحصنوا بالحصون: «أيها الروم! انزلوا إلينا، فوالله لو كنتم معلقين بالسحاب لرفعنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا»!!

ووقف الفارس المسلم عقبة بن نافع على شاطئ المحيط الأطلنطي، وقال: «والله يا بحر! لو أعلم أن وراءك أرضًا تُفتح في سبيل الله، لخضتك بفرسي هذا».

رحم الله هذا الجيل القرآني الفريد، ورضي عنهم، وألحقنا به على خير حال، آمين، والحمد لله رب العالمين.



مصر في سُنَّة الرسول صلى الله عليه وسلم ووصيته

(الحلقة الثالثة)

إعداد/ جمال عبد الرحمن

الحمد لله الذي فاوت بين العباد، وفضّل بعض خلقه على بعض حتى في الأمكنة والبلاد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح من نطق بالضاد، وعلى آله وصحبه السادة الأمجاد.. وبعد.

وقد كانت مصر - ولا تزال بإذن الله - حامية الدين والملة، وداعية الإسلام والمسلمين، وقاهرة الغزاة والمعتدين، مما جعلها أعز مكان في الوطن العربي الكبير، فكان من حق هذا الإقليم أن يشغل مكانه في التاريخ، وأن يخص بعناية العلماء والمؤرخين، وأن تفرد لوصف ملامحه المؤلفات، وأن يتدارس تاريخه في كل الأمكنة والأوقات.

أخرج مسلم في صحيحه، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط؛ فاستوصوا بأهلها خيرًا؛ فإن لهم ذمة ورحما»، أي حق وحرمة.

وأخرج الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في دلائل النبوة؛ بسند صحيح؛ عن أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى عند وفاته، فقال: «الله الله في قبط مصر؛ فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عُدة وأعوانًا في سبيل الله» [والحديث صححه الألباني في الصحيحة ٣١١٣].

كنا قد تحدثنا في ما مضى عن فضل مصر وتشريفها بوصية النبي صلى الله عليه وسلم بأهلها، وقد ازدادت شرفًا بدخول مئات من الصحابة الأخيار إليها إما فاتحين أو حكامًا أو باحثين عن الحديث وغير ذلك، وها هي بعض أسماء المشهورين منهم ومواقف ومناقب لكثير منهم.

الصحابة الذين دخلوا مصر

ذكر السيوطي رحمه الله في كتابه «حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» عدد من دخل من الصحابة رضوان الله عليهم إلى مصر المحروسة، وقد أورد ذلك جمعًا مما ذكره ابن الربيع الجيزي وابن عبد الحكم في تاريخه، وتاريخ ابن يونس، وطبقات ابن سعد، وكتاب التجريد للذهبي- رحم الله الجميع-، فزاد عددهم على ثلاثمائة، وسأورد - إن شاء الله - من هؤلاء الأخيار المشهورين منهم وكذلك من شهد بدرًا لفضله، ومن بايع النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة لرضوان الله تعالى عمن بايعوه تحتها، ومن له نادرة أو لطيفة، أو كرامة أو قصة طريفة.

١- أبيض بن حمال بن مرثد بن ذي لُحيان المأربي السبئي. شهد فتح مصر. قال البخاري وابن السكن: له صحبة وأحاديث تعد في أهل اليمن، وروى الطبراني أنه وفد على أبي بكر رضي الله تعالى عنه لما انتقض عليه عمال اليمن. وروى حديثه أصحاب السنن الأربعة وابن حبان، وروي أن أبيض بن حمال، كان بوجهه حزازة، وهي القوباء، فالتقمت أنفه،

فمسح النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه، فلم يُمْسِ ذلك اليوم وبه أثر. [الإصابة ٢٨/١].

٢- أسعد بن عطية بن عبيدة القضاعي البلوي. أحد من بايع الرسول صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، وشهد فتح مصر.

٣- إياس بن البكير -ويقال ابن أبي البكير- بن عبد ياليل بن ثابت الليثي. بدري شهد فتح مصر، ولأهل مصر عنه حديث واحد، ومات سنة أربع وثلاثين. واستشهد أخوه عاقل ببدر، وأخوه خالد يوم الرجيع، وأخوه عامر باليمامة.

قال ابن إسحاق: لا يُعلم أربعة إخوة شهدوا بدرًا غير إياس وإخوته وهاجروا جميعًا.

٤- بَصْرة الغفاري: قال في الإصابة: له ولأبيه صحبة، معدود فيمن نزل مصر. أخرج حديث مالك والأربعة بسند صحيح.

وقال المزي في التهذيب: له عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث واحد، رواه عنه أبو هريرة، وهو حديث: «لا تُعمل المطي إلا ثلاثة مساجد» [والحديث رواه مالك أحمد وصححه الألباني برقم: ٧٣٧١ في صحيح الجامع]، وقال ابن سعد: هو وأبوه وابنه صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم ورووا عنه. وقال الذهبي في التجريد: هو وأبوه صحابيان نزلا بمصر.

٥- بلال بن حارث بن عاصم بن سعيد بن قرة المزني، أبو عبد الرحمن. من أهل المدينة، أقطعه النبي صلى الله عليه وسلم العقيق، وكان صاحب لواء مزينة يوم الفتح، وكان يسكن وراء المدينة، ثم تحول إلى البصرة، ذكره ابن سعد في الطبقة الثالثة من المهاجرين، وقال ابن الربيع: شهد فتح مصر، وتوفي سنة ستين، وهو ابن ثمانين سنة.

٦- تميم بن أوس بن حارثة الداري، أبو رقية، من مشاهير الصحابة، أسلم سنة تسع، هو وأخوه نعيم، وذكر للنبي صلى الله عليه وسلم قصة الجساسة والدجال؛ فحدث عنه النبي صلى الله عليه وسلم بذلك على المنبر، وعد ذلك من مناقبه؛ وأورده أهل الحديث أصلا لرواية الأكابر عن الأصاغر؛ (يعني: رواية النبي صلى الله عليه وسلم عمن هو دونه في الفضل)، وكان نصرانيًا من علماء أهل الكتاب. قال أبو نعيم: وكان راهب أهل عصره، وعابد فلسطين، وغزا مع النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أول من أسرج السراج في المسجد، وأول من قص (القصص)، وذلك في خلافة عمر.

شهد فتح مصر؛ ولأهلها عنه حديث واحد، وسكن فلسطين بعد قتل عثمان، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أقطعه بها قرية عينون. مات سنة أربعين t.

٧- ثابت بن الحارث -ويقال ابن حارثة- الأنصاري. قال الذهبي في التجريد: يعد في المصريين، مصري شهد بدرًا.

٨- ثابت بن رويفع الأنصاري. له صحبة، نزل مصر. وقال البخاري في كتاب الصحابة: ثابت بن رويفع بن ثابت الأنصاري المصري، وكان يؤمر على السرايا؛ سمع من النبي صلى الله عليه وسلم حديث: «إياكم والغلول» [أخرجه ابن ماجه وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٦٧٠].

٩- ثابت مولى الأخنس بن شريق. قال في الإصابة: شهد بدرا، شهد فتح مصر. وقال الذهبي في التجريد: مهاجر شهد فتح مصر.

١٠- ثوبان بن يجدد -ويقال ابن جحدر- مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أهل السراة، أصابه سباء فاشتراه النبي صلى الله عليه وسلم، فأعتقه، ولم يزل معه في الحضر والسفر، حتى توفي صلى الله عليه وسلم، فخرج إلى الشام، فنزل الرملة، ثم انتقل إلى حمص، فأقام بها إلى أن مات بها سنة أربع وخمسين. شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث واحد. قال ابن كثير: ويقال: إنه توفي بمصر.

وروى ابن السكن عن ثوبان، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لأهله، فقلت: أنا من أهل البيت؟ فقال في الثالثة: «نعم، ما لم تقم على باب سدة، أو تأتي أميرا تسأله».

وروى أبو داود عن ثوبان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تكفل لي ألا يسأل الناس وأتكفل له بالجنة؟ » فقال ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحدا شيئًا. والحديث صححه الألباني.

١١- جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، يكنى أبا عبد الله وأبا عبد الرحمن وأبا محمد، أحد المكثرين عن النبي صلى الله عليه وسلم، روى مسلم عنه، أنه غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة. عن هشام بن عروة، قال: كان لجابر بن عبد الله حلقة في المسجد النبوي، يُؤخذ عنه العلم.

قال ابن الربيع: قدم مصر على عقبة بن عامر -ويقال على عبد الله بن أنيس- يسأله عن حديث القصاص، وذلك في أيام مسلمة بن مخلد. ولأهل مصر عنه نحو عشرة أحاديث.

الحديث الذي رحل فيه جابر بن عبد الله إلى مصر:

عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: كان عبد الله بن أنيس الجهني -وكان عداده في الأنصار- يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثًا في القصاص. قال جابر بن عبد الله: فخرجت إلى السوق، فاشتريت بعيرا، ثم شددت عليه رحلا، ثم سرت إليه شهرا، فلما قدمت عليه مصر، سألت عنه؛ حتى وقفت على بابه، فسلمت، فخرج إلي غلام أسود، فقال: من أنت؟ قلت: جابر بن عبد الله، فدخل عليه فذكر ذلك، فقال: قل له: أصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فخرج الغلام، فقال ذلك، فقلت: نعم، فخرج إليَّ والتزمني والتزمته، فقال: ما جاء بك يا أخي؟ قلت: حديث تحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القصاص، لم يبق أحد يُحدث به عن رسول الله غيرك، أردت أن أسمعه منك قبل أن تموت أو أموت، قال: نعم، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا كان يوم القيامة حشر الله الناس حفاة عراة غرلا بُهما، ثم جلس على كرسيه تبارك وتعالى، ثم يُنادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب يقول: أنا الملك الديان، لا ظلم اليوم؛ لا ينبغي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار عنده مظلمة، حتى لطمة بيد» قيل يا رسول الله، كيف؛ وإنما نأتي الله يوم القيامة حفاة عراة غرلا بهما؟ قال: «من الحسنات والسيئات»، قال له بعض القوم: ما البهم؟ قال: سألت عنها جابر بن عبد الله فقال: الذين لا شيء معهم. [أخرجه أحمد وصححه الألباني].

كان آخر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم موتًا بالمدينة جابر، بعد أن عَمي. قال ابن حبان: مات بعد أن عمي سنة ثمان وسبعين -وقيل سنة سبع، وقيل سنة أربع، وقيل سنة ثلاث وستين- وقيل إنه عاش أربعا وتسعين سنة.

١٢- جبَارة بن زرارة البلوي. صحب النبي صلى الله عليه وسلم، وشهد فتح مصر، وبايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، وكان اسمه حبارة، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم جبارة.

١٣- جبر بن عبد الله القبطي، مولى بني غفار، ويقال مولى بني غفار، كان رسول المقوقس بمارية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الحسن: وقد رأيت بعض ولده بمصر، والقبط تفتخر بأن منهم من صحب النبي صلى الله عليه وسلم وكان رسول المقوقس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية وأختها وما أهدى معهما. مات سنة ثلاث وستين.

١٤- جبلة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيد الأنصاري، أخو أبي مسعود البدري. روى ابن منده وابن الربيع عن سلمان بن يسار، أنه سئل عن النفل في الغزو، فقال: لم أر أحدًا يعطيه، غير معاوية بن حديج، نفلنا في إفريقية الثلث بعد الخمس، ومعنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين الأولين ناس كثير، فأبى جبلة بن عمرو الأنصاري أن يأخذ منه شيئًا.

شهد أحدًا، وشهد فتح مصر، وغزا إفريقية مع معاوية بن حديج سنة خمسين. وكان فاضلاً من فقهاء الصحابة. قاله ابن عبد البر. وقال: روى عنه من أهل المدينة ثابت بن عبيد وسليمان بن يسار.

١٥- جرهد بن خويلد بن بحرة الأسلمي أبو عبد الرحمن. كان من أهل الصفة. شهد فتح مصر، روى الطبراني عن جرهد أنه أكل بيده الشمال، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «كل باليمين»، فقال: إنها مصابة، فنفث عليها فما شكا حتى مات. وله دار بالمدينة، ومات بها في آخر خلافة يزيد.

١٦- جعثم الخير بن خليبة بن ساجي الصدفي. بايع تحت الشجرة، وكساه النبي صلى الله عليه وسلم قميصه ونعليه، وأعطاه من شعره. شهد فتح مصر.

١٧- جميل بن معمر بن حبيب الجمحي. له صحبة، وكان قاضيًا لعمر بن الخطاب، ولا نسب بينه وبين جميل العذري الشاعر، المشهور صاحب بثينة، وهو الذي أخبر قريشا بإسلام عمر حين أخبره، واستكتمه، ثم أسلم، وشهد فتح مكة وحنينا. وشهد فتح مصر، ومات في أيام عمر، وحزن عليه حزنا شديدا، وقارب المائة؛ وكان أبوه من كبار الصحابة.

١٨- الحارث بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ابن عبد البر: له رواية. وأمه حجيلة بنت جندب الهلالية؛ وقيل أم ولد، غضب أبوه عليه العباس، فطرده إلى الشام، فسار إلى الزبير بمصر، فقدم به الزبير على العباس، وشفع له.

١٩- حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير اللخمي. شهد بدرا، ودخل مصر رسولا من النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس، ثم ورد عليه أيضا رسولا من أبي بكر. روى مسلم عن جابر، أن عبدا لحاطب بن أبي بلتعة، جاء يشكو حاطبا، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال: «لا، إنه شهد بدرا والحديبية» [رواه مسلم ٢٤٩٥]، مات سنة ثلاثين، وله خمس وستون سنة.

٢٠- حزام بن عوف البلوي. نزل مصر من الصحابة، وشهد فتحها، وهو ممن بايع تحت الشجرة في رهط من قومه.

٢١- الحكم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف القرشي. شهد فتح مصر، وشهد خيبر، وكان من رجال قريش، استخلفه محمد بن أبي حذيفة على مصر لما سار إلى عمرو بن العاص بالعريش، وله حديث يرفعه: «لا تقدموا بين أيديكم في صلاتكم، وعلى جنائزكم سفهاءكم».

٢٢- حمزة بن عمر الأسلمي المدني أبو صالح. وقيل: أبو محمد. شهد فتح مصر. وهو الذي بشر كعب بن مالك بتوبة الله عليه. مات سنة إحدى وستين، وله إحدى وسبعون سنة. حديثه في الصحيحين.

٢٣- حنظلة صاحب النبي صلى الله عليه وسلم. دخل مصر، وفي الصحابة جماعة يسمون بهذا الاسم، وأقربهم إلى هذا حنظلة الثقفي.

٢٤- خارجة بن حذافة بن غانم بن عامر العدوي. أحد الفرسان؛ قيل: كان يُعدّ بألف فارس؛ وهو من مسلمة الفتح، وأمد به عمر عمرو بن العاص، فشهد معه فتح مصر، واختط بها. وكان على شروط عمرو بن العاص، فحصل لعمرو ليلة مغص، فاستخلفه على الصلاة، فقتله الخارجي الذي انتدب لقتل عمرو، وهو يظنه عَمْرًا، وقال: «أردت عَمْرا وأراد الله خارجة». وصارت مثلاً. وذلك ليلة قتل علي بن أبي طالب، وفيه يقول الشاعر:

فَلَيْتَهَا إِذْ فَدَتْ عَمْرًا بِخَارِجَةٍ
فَدَتْ عَلِيًّا بِمَنْ شَاءَتْ مِنَ الْبَشَرِ

له حديث واحد في الوتر. وله من الولد: عبد الرحمن وأبان.

٢٥- خالد بن العنبس. صحابي دخل مصر، وهو ممن بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر

٢٦- دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي. من مشاهير الصحابة، أول مشاهده الخندق -وقيل أُحد- وكان يُضرب به المثل في حسن الصورة، وكان جبريل عليه الصلاة والسلام ينزل على صورته. حتى قيل: أجمل الناس من كان جبريل ينزل على صورته. وعن ابن عباس: كان دحية إذا قدم المدينة لم يبق مُعْصِر إلا خرجت تنظر إليه. (والمعصر المرأة التي بلغت شبابها وأدركت) ذكره ابن قتيبة في الغريب. وهو رسول النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر. وفي الإصابة: اجتمع لنا عنه نحو ستة أحاديث، شهد فتح مصر، وسكن المزة بدمشق، إلى خلافة معاوية.

نسأل الله أن يحفظ مصر وأهلها من كل سوء.

قصة تزويج فاطمة بعلي رضي الله عنهما

الحلقة (١٥١)

إعداد/ إعداد: علي حشيش

نواصل في هذا التحذير تقديم البحوث العلمية الحديثية للقارئ الكريم؛ حتى يقف على حقيقة هذه القصة التي اشتهرت على ألسنة القصاص والوعاظ ويروِّج لها الشيعة، ويجادلون أهل السنة بأنها في مصادر أصلية لأهل السنة.

وإلى القارئ الكريم التخريج والتحقيق لهذه القصة الواهية:

أولاً: متن القصة:

يُرْوَى عن أنس بن مالك قال: «جاء أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقعد بين يديه فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام، وأني وأني، قال: وما ذاك؟»

قال: تزوّجني فاطمة، قال: فسكت عنه.

فرجع أبو بكر إلى عمر فقال له: هلكت وأهلكت، فقال: وما ذاك؟ قال: خطبت فاطمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأعرض عني، فقال: مكانك حتى آتي النبي صلى الله عليه وسلم فأطلب مثل الذي طلبت، فأتى عمر النبي صلى الله عليه وسلم فقعد بين يديه فقال: يا رسول الله، قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام، وأني وأني، قال: «وما ذاك؟».

قال: تزوجني فاطمة، فسكت عنه.

فرجع عمر إلى أبي بكر فقال له: «إنه ينتظر أمر الله فيها، قم بنا إلى عليّ حتى نأمره يطلب مثل الذي طلبنا.

قال عليّ: فأتياني وأنا أعالج فسيلاً لي، فقالا: إنا جئناك من عند ابن عمك بِخطبة، قال عليّ: فنبهاني لأمر، فقمت أجرُّ ردائي حتى أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقعدت بين يديه، فقلت: يا رسول الله، قد علمت قدمي في الإسلام ومناصحتي، وأني، وأني، قال:

«وما ذاك؟».

قال: تزوجني فاطمة، قال: «وعندك شيء».

قلت: فرسي وبدني، قال: «أما فرسك فلا بد لك منه، وأما بدنك، فبعها».

قال: فبعتها بأربعمائة وثمانين، فجئت بها حتى وضعتها في حجره، فقبض منها قبضة، فقال:

«أي بلال ابتعنا بها طيبًا».

وأمرهم أن يجهزوها، فجعل لها سريرًا مُشَرّطًا بالشرط، ووسادة من أدم حشوها ليف، وقال لعلي: «إذ أتيتك، فلا تحدث شيئًا حتى آتيك».

فجاءت مع أم أيمن، حتى قعدت في جانب البيت، وأنا في جانب، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «هاهنا أخي؟» قالت أم أيمن: أخوك وقد زوجته ابنتك؟ قال: «نعم».

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت، فقال لفاطمة: «ائتني بماء» فقامت إلى قعب في البيت، فأتت فيه بماء، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَجّ فيه، ثم قال لها: «تقدّمي» فتقدمت فنضح بين ثدييها، وعلى رأسها، وقال: «اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم».

ثم قال لها: «أدبري فأدبرت فصبّ بين

كتفيها، وقال: اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم».

ثم قال صلى الله عليه وسلم: قال علي: فعلمت الذي يريد فقمت، فملأت القعب ماءً، وأتيته به فأخذه فمج فيه، ثم قال لي: «تقدم» فصب الماء على رأسي وبين ثديي، ثم قال: «اللهم إني أعيذه بك وذريته من الشيطان الرجيم».

ثم قال: «أدبر» فأدبرت فصبه بين كتفي، وقال: «اللهم إني أعيذه بك وذريته من الشيطان الرجيم».

ثم قال لعلي: «ادخل بأهلك باسم الله والبركة». اهـ.

ثانيًا: التخريج:

هذا الخبر الذي جاءت به هذه القصة الواهية أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (ح٢٢٢٥/زوائد): «أخبرنا أبو شيبة داود بن إبراهيم بن داود بن يزيد البغدادي بالفسطاط حدثنا الحسن بن حماد حدثنا يحيى بن يعلى الأسلمي، عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك، قال: جاء أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم».

ثالثا: التحقيق:

هذا الخبر الذي جاءت فيه هذه القصة الواهية «قصة تزويج فاطمة لعليّ رضي الله عنهما» فيه علتان:

الأولى: الطعن في الراوي.

الأخرى: السقط في الإسناد.

أما الطعن في الراوي: ففي الإسناد: يحيى بن يعلى الأسلمي:

١- قال الإمام المزي في «تهذيب الكمال» (٢٠/٢٦٤/٧٥٤٥): «يحيى بن يعلى الأسلمي القطواني، أبو زكريا الكوفي:

روى عن سعيد بن أبي عَروبة وآخرين.

روى عنه الحسن بن حماد سجادة وآخرون.

٢- قال الحافظ ابن حجر في «التهذيب» (١١/٢٦٦): «أخرج ابن حبان له في «صحيحه» حديثًا طويلاً في تزويج فاطمة فيه نكارة».

٣- قال ابن عدي في «الكامل» (٧/٢٣٣) (٢١٣٢/٧٩): «يحيى بن يعلى أبو زكريا الأسلمي هذا كوفي في جملة شيعتهم». اهـ.

ثم أخرج الإمام الحافظ أقوال أئمة الجرح والتعديل في يحيى بن يعلى فقال:

أ- حدثنا الجنيدي حدثنا البخاري قال: «يحيى بن يعلى الأسلمي القطواني، وقطوان موضع بالكوفة، مضطرب الحديث». اهـ.

ب- وحدثنا أحمد بن علي بن بحر، حدثنا عبدالله الدورقي قال يحيى بن معين: «ابن يعلى الأسلمي ليس بشيء». اهـ.

٤- قال الإمام ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٤/٢/١٩٦): يحيى بن يعلى الأسلمي أبو زكريا القطواني كوفي سألت أبي عنه فقال: «كوفي ليس بالقوي، ضعيف الحديث».

٥- قال الإمام الحافظ في «المجروحين» (٣/١٢١): «يحيى بن يعلى أبو زكريا الأسلمي القطواني وقطوان موضع في الكوفة، وليس هو يحيى بن يعلى المحاربي ذاك ثقة، وهذا يروي عن يونس بن خباب وعبد الملك بن أبي سليمان، روى عنه أبو نعيم ضِرار بن صُرَد، يروي عن الثقات الأشياء المقلوبات فلست أدري وقع ذلك منه أم من أبي نعيم؟ لأن أبا نعيم ضرار بن صرد سيئ الحفظ كثير الخطأ.. ويجب التنكب عمًّا رَوَيا جملة، وترك الاحتجاج بهما على كل حال». اهـ.

٦- لذلك جمع الحافظ ابن حجر أقوال أئمة الجرح والتعديل في يحيى بن يعلى الأسلمي القطواني أبي زكريا الكوفي،

وأقرها فقال في «التهذيب» (١١/٢٦٦) قال عبد الله الدورقي عن يحيى بن معين: «ليس بشيء».
وقال البخاري: «مضطرب الحديث».
وقال ابن عدي: «كوفي من الشيعة».
ثم الحافظ ابن حجر: «وأخرج ابن حبان في صحيحه حديثًا طويلاً في تزويج فاطمة فيه نكارة، وقد قال ابن حبان في «الضعفاء»: يروي عن الثقات المقلوبات... وقال البزار يغلط في الأسانيد». اهـ.
٧- قلت: وقول الحافظ ابن حجر: «أخرج ابن حبان له - يعني يحيى بن يعلى الأسلمي - حديثًا طويلاً في تزويج فاطمة فيه نكارة، وقد قال ابن حبان في الضعفاء يروي عن الثقات المقلوبات». هذا القول أقره الشيخ الألباني - رحمه الله - في «ضعيف موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان» (ح٢٧٢) حيث نقل حديث القصة الطويل في أكثر من خمسين سطرًا، ثم قال: «حديث منكر المتن ضعيف الإسناد لضعف الأسلمي وقد اتفقوا على تضعيفه، ومعهم ابن حبان الذي جرحه في «ضعفائه» (٣/١٢١) ولم يورده في «ثقاته» فمن عجائبه غير المعهودة: إخراجه لحديثه هذا في «صحيحه»، فهذا نوع جديد من تناقضاته، وقد أشار إلى هذا الأخ الداراني في تعليقه» (٧/١٧٤).
ومع ذلك، فإنه لا زال سادرًا في الاعتداد بتوثيقاته وتصحيحاته، مع كثرة الأمثلة الدالة على تساهله وتناقضه والله هو الهادي. اهـ.
قلت: وهذا القول مهم جدًا حيث إن إطلاق اسم «الصحيح» على كتاب من كتب السنة الأصلية بعد الصحيحين أمر فيه نظر بيّنه أئمة هذا الفن المتبحرون في الصنعة الحديثية، فقد بيّن ذلك الإمام ابن كثير في «اختصار علوم الحديث» (ص: ٢٥) حيث قال: «وكان الحاكم أبو عبد الله والخطيب يسميان كتاب الترمذي: «الجامع الصحيح»، وهذا تساهل منهما فإن فيه أحاديث كثيرة منكرة.
وقول الحافظ ابن علي بن السكن، وكذا الخطيب البغدادي في كتاب السنن للنسائي: أنه صحيح قول فيه نظر. وإن له شرطًا في الرجال أشد من شرط مسلم غير مسلم، فإن فيه رجالاً مجهولين: إما عينًا أو حالاً، وفيهم المجروح، وفيه أحاديث ضعيفة ومعللة ومنكرة كما نبهنا عليه في «الأحكام الكبير»».
قلت: وهذا ينطبق تمام الانطباق على كتاب ابن حبان المسمى «صحيح ابن حبان»، كما بيّنا آنفًا في تحقيق هذا الخبر المنكر الذي جاءت به هذه القصة.
٨- لقد تبين من أقوال أئمة الجرح والتعديل أن هذا الخبر الذي جاءت به هذه القصة المنكرة في إسناده يحيى بن يعلى الأسلمي وهو كوفي من الشيعة، ولذلك تظهر على هذا الخبر المنكر افتراءات وبدع الشيعة من الدخول في العرس على الزوجين، وإحضار الماء والمجّ فيه، ثم نضحه على ثدي العروس وعلى رأسها والتعوذ من الشيطان عند صب الماء بين كتفيها كذلك بالنسبة لزوجها، وهذا من بدع الشيعة المنكرة والتي يروّج لها من لا علم له بهذه الصنعة.
٩- ومن الفوائد المهمة قول الإمام ابن حبان:
«يحيى بن يعلى أبو زكريا الأسلمي القطواني ليس هو يحيى بن يعلى المحاربي ذاك ثقة وهذا- يعني الأسلمي - يروي عن الثقات الأشياء المقلوبات، ووجب التنكب عما يرويه جملة وترك الاحتجاج به على كل حال هو والراوي عنه ضرار بن صرد.
قلت: ولقد بين ذلك السيوطي في «تدريب

الراوي» (٣١٦/٢) فقال: «النوع الرابع والخمسون: المتفق والمفترق من الأسماء والأنساب ونحوها وهو متفق خطًا ولفظًا وافترقت مسمياته وقد زلق بسببه غير واحد من الأكابر». اهـ.

وقد ضرب لذلك الإمام السيوطي مثلاً لأحد أقسامه فقال: «وهو أقسام: الأول: من اتفقت أسماؤهم وأسماء آبائهم كالخليل بن أحمد ستة، ولقد فرَّق بينهم السيوطي في أكثر من أربعين سطرًا.

قلت: وقول الإمام السيوطي المتفق والمفترق قد زلق بسببه غير واحد من الأكابر يتبين منه أهمية هذا النوع وفائدته؛ حيث إن معرفته مهمة جدًا فقد زلق بسبب الجهل بهذا النوع غير واحد من أكابر العلماء.

حيث إن من فوائده:

أ- عدم الظن بأن المشتركين في الاسم واحد، مع أنهم جماعة.

ب- التمييز بين المشتركين في الاسم، فربما يكون أحدهما ثقة والآخر ضعيفًا فيضعف ما هو صحيح أو بالعكس.

قلت: وهذا التمييز هو ما بينه الإمام ابن حبان في «المجروحين» (١٢١/٣) عندما ميز بين يحيى بن يعلى أبو زكريا الأسلمي القطواني الضعيف الذي يروي عن الثقات المقلوبات وقال: ووجب ترك الاحتجاج به على كل حال.

وبين يحيى بن يعلى المحاربي حيث ميزه الإمام ابن حبان عن الأسلمي بقوله: «وليس هو يحيى بن يعلى المحاربي ذاك ثقة». اهـ.

قلت: ويحسبه من لا دراية له بهذا الفن هينًا ولكنه عند أصحاب هذه الصناعة عظيم حيث زلق بسبب الجهل بهذا النوع غير واحد من الأكابر كما بينا آنفا، ونحاول بهذا التحقيق أن نقدم لطالب هذا العلم نموذجًا من علم الحديث التطبيقي بهذا التفصيل كما هو أحد أهداف هذه السلسلة الذي بيناه آنفًا.

العلة الأخرى بالخبر الذي جاءت به هذه القصة هو «السقط في الإسناد».

والسقط ليس من أنواع السقط الظاهري، ولكنه من أنواع السقط الخفي وهو التدليس.

فالخبر من حديث يحيى بن يعلى الأسلمي عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك قال: «جاء أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم...» القصة.

قلت: وقتادة هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري. ذكره الحافظ ابن حجر في «طبقات المدلسين» في «المرتبة الثالثة» (٢٦) قال: «قتادة بن دعامة السدوسي البصري صاحب أنس بن مالك رضي الله عنه وهو مشهور بالتدليس وصفه به النسائي وغيره».

قلت: وهذه المرتبة الثالثة التي فيها قتادة هذا بيَّنها الحافظ ابن حجر في منهجه في بيان مراتب المدلسين حيث قال: «الثالثة: من أكثر من التدليس فلم يحتج الأئمة من أحاديثهم إلا بما صرحوا فيه بالسماع ومنهم من ردّ حديثهم مطلقًا». اهـ.

ولقد بين الحافظ ابن حجر القول الراجح في «شرح النخبة» النوع (٢٤) حيث قال: «وحكم من ثبت عنه التدليس إذا كان عدلاً ألا يقبل منه إلا ما صرح فيه بالتحديث على الأصح». اهـ.

قلت: وقتادة لم يصرح في خبر القصة بالتحديث ولكنه عنعن فالخبر مردود وهذه العلة تزيد القصة وهنًا على وهن وتصبح القصة واهية بالسقط والطعن.

هذا ما وفقني الله إليه وهو وحده من وراء القصد.

باب الفقه

الحلقة الثالثة

أحكام الصلاة

صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم

إعداد/ د. حمدي طه

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

في هذه الحلقة الثالثة من حديثنا عن صفة الصلاة نكمل ما بدأناه بالحديث عن صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم فنقول مستعينين بالله تعالى:

رفع اليدين في الصلاة

نتكلم عن رفع اليدين في الصلاة في النقاط التالية:

مواضع رفعُ اليدين:

يُسن للمسلم أن يرفع يديه عند افتتاح الصلاة بالتكبيرة الأولى؛ «تكبيرةِ الإحرام»، وأجمع العلماء على أن تكبيرة الإحرام برفع اليدين، وقد جاء عن أكثر من ستين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في صفة صلاته أنه رفع يديه في تكبيرة الإحرام، ولذلك قالوا: رفع اليدين في تكبيرة الإحرام متواتر (شرح زاد المستقنع للشنقيطي ١/٤٩٦).

كما يُسن له رفعهما عند الركوع، وعند الرفع منه، وعند القيام من التشهد الأوسط، أي عند القيام من الركعتين، ولا يُشرع في غير هذه المواطن الأربعة، فلا يُشرع بين السجدتين، ولا عند القيام من الركعة الأولى، أو القيام من الركعة الثالثة. ورفع اليدين سُنة مشتركة بين الرجال والنساء؛ لأنه لم يرد دليل على التفرقة بينهما. (الجامع لأحكام الصلاة ٢/١٦٩).

ودليله: جاءت به السُّنَّةُ في عِدَّة أحاديث؛ كحديث ابن عُمرَ رضي الله عنهما: «كان إذا دخل في الصلاة كبَّر ورفع يديه، وإذا ركع رفع يديه، وإذا قال سمع الله لمن حمده رفع يديه، وإذا قام من الركعتين رفع يديه، ورفع ذلك ابن عمر إلى نبي الله – صلى الله عليه وسلم –»، ووردت هذه المواضع في حديث أبي حميد الساعديّ الذي أشرنا إليه سابقاً، فهذه أربعة مواضع تُرفع فيها اليدان جاءت بها السُّنَّةُ، ولا تُرفع في غير هذه المواضع. (الشرح الممتع لابن عثيمين ٣/٢٦).

وقال بعض أهل العلم: يُشرع رفع اليدين في كل خفض ورفع، ويدل عليه حديث مالك بن الحويرث في النسائي وفيه: (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه إذا ركع، وإذا رفع رأسه من الركوع، وإذا سجد وإذا رفع رأسه من السجود حتى يحاذي بهما فروع أذنيه). (شرح زاد المستقنع للحمد ٢٤/٧٩).

متى تُرفع اليدين؟

الأحاديث الواردة في ابتداء رَفْع اليدين وَرَدتْ أيضاً على وجوه متعدِّدة؛ فبعضُها يدل على أنه كان صلى الله عليه وسلم يرفع يديه تارة مع التكبير، وتارة بعد التكبير، وتارة قبله (ورد ذلك عند البخاري ومسلم)؛ ففي حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ –صلى الله عليه وسلم–

إذا قامَ للصَّلاة رَفَعَ يَدَيْه حَتَّى تَكُونَا حَذْوَ مَنْكِبَيْه، ثُمَّ كَبَّرَ، فإذا أرَادَ أنْ يَرْكَعَ فعلَ مِثْل ذَلِك...الحديث (رواه مسلم).

وعَنْ أبي قِلاَبَةَ أنَّهُ رَأى مَالِكَ بْنَ الْحُوَيْرِث إذا صَلَّى كَبَّرَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْه، وَإذا أرَادَ أنْ يَرْكَعَ رَفَعَ يَدَيْه، وَإذا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوع رَفَعَ يَدَيْه، وَحَدَّثَ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلىَ الله عليه وسلم- كَانَ يَفْعَلُ هَكَذَا. (رواه مسلم)

وعَنْ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم افتتح التكبير في الصلاة، فرفع يديه حين يكبر حتى يجعلهما حذو منكبيه، وإذا كبر للركوع فعل مثله...الحديث (رواه البخاري).

ونحن نقول: إن الأمرَ أيضاً في هذا واسع، يعني سواء رَفعتَ ثم كبَّرت، أو كبَّرت ثم رفعتَ، أو رَفعتَ مع التَّكبير، فإنْ فعلتَ أيَّ صفة مِن هذه الصِّفات فأنت مُصيبٌ للسُّنَّة.

كيفية رفع اليدين:

واليدان تُرفعان مدّاً مع تفريق الأصابع، ويحاذي بهما المصلي المنكبين أو شحمتي الأذنين، وتُرفعان مع تكبيرة الإحرام، ومع التكبيرات الثلاث الأخرى، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه ممدودة الأصابع [لا يفرج بينها ولا يضمها]؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل في الصلاة رفع يديه مدًا) (رواه أبو داود والترمذي).

وكان يجعلهما حذو منكبيه كما في حديث أبي حميد الساعديّ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة، يرفع يديه حتى يُحاذيَ بهما مَنْكبيه أو يرفعهما حتى يحاذي بهما فروع أذنيه؛ لحديث مالك بن الحويرث قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبّر رفع يديه حتى يحاذي بهما أذنيه)، فتكون صفة الرَّفع مِن العبادات الواردة على وجوهٍ متنوِّعة.

وضعُ اليدين في الصلاة:

يُندب للمصلي أن يضع يده اليمنى على كفِّ يده اليسرى شادّاً بهما على صدره؛ فقد كان صلى الله عليه وسلم يضع يده اليمنى على اليسرى، وقد وَرَدَت السُّنَّة بقَبْض الكوع، ووَرَدَت السُّنَّة بوضع اليد على الذراع مِن غير قبْض.

إذاً؛ هاتان صفتان: الأولى قَبْض، والثانية وَضْع. فعن وائل بن حُجْر قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان قائماً في الصلاة قبض بيمينه على شماله (أخرجه النسائي).

وفي «صحيح البخاري» من حديث سهل بن سعد أنه قال: «كان النَّاسُ يؤمرون أن يضعَ الرَّجُلُ يدَه اليُمنى على ذراعِه اليُسرى في الصَّلاة» (الشرح الممتع لابن عثيمين ٣/٣٦).

وعن وائل بن حُجْر قال: «صليت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوضع يده اليمنى على يده اليسرى على صدره» (رواه ابن خُزَيمة). وحديث وائل بن حجر وفيه (ثم وضع يده اليمنى على ظهر كفه اليسرى بين الرسغ والساعد).

النهي عن وضع اليدين على الخاصرة:

ويُكره وضع اليدين على الخاصرتين، وهو المسمى بالتَّخصُّر أو الاختصار؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «نُهي أن يصلي الرجل مختصراً» رواه البخاري ومسلم.

وروى أحمد عن يزيد بن هارون «أنبأنا هشام عن محمد عن أبي هريرة قال: نَهى عن الاختصار في الصلاة، قال: قلنا لهشام: ما الاختصار؟ قال: يضع يده على خصره وهو يصلي، قال يزيد: قلنا لهشام: ذكره عن النبي - صلى الله عليه وسلم -؟ قال برأسه: أي نعم».[صفة الصلاة للألباني ص ٨٧].

والخاصرة هي: المستدق من البطن الذي فوق الورك، أي: وسط الإنسان، وقد جاء تعليل ذلك في حديث عائشة بأنه فعل اليهود، فكان اليهود يفعلون هذا في صلاتهم(الشرح الممتع لابن عثيمين ٣/٢٣٣).

النظر في الصلاة:

هذه سنة من سنن الصلاة، وهي أن ينظر إلى موضع سجوده. وهو شامل للإمام والمأموم والمنفرد؛ أنه ينظر موضعَ سجوده، وعلى هذا كثير من أهل العلم، قالوا: لأن ذلك أخشع للصلاة، وهو كذلك أبعد عن النظر إلى السماء المنهي عنه، وهي حالة يتبين فيها خشوع الأعضاء لله عز وجل، وقد وردت فيها بعض الآثار.

فقد روى البيهقي عن سليمان الخولاني عن أبي قلابة قال: حدثني عشرة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن صلاة النبي صلى الله عليه وسلم في قيامه وركوعه وسجوده بنحو من صلاة أمير المؤمنين - يعني عمر بن عبد العزيز - قال سليمان: (فرمقت عمر في صلاته، فكان ينظر إلى موضع سجوده) والحديث فيه صدقة وهو ضعيف. لكن له شاهد مرسل عند الحاكم، ورواه الحاكم موصولاً من حديث أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة وقد أخطأ بعض الرواة فوصله، وعامة الرواة أنه مرسل، قال الذهبي: « والصحيح مرسل». ولفظه: (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرفع بصره إلى السماء فلما نزلت:(﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾) [المؤمنون: ١] طأطأ رأسه) فهذا يدل على أنه يطأطئ رأسه، وحيث كان كذلك فإن بصره إلى موضع سجوده. (شرح زاد المستقنع للشيخ الحمد ٣٠/٢٤).

وقال بعضُ العلماء: ينظرُ تلقاء وجهه، إلا إذا كان جالساً، فإنَّه ينظر إلى يدِه حيْث يُشير عند الدُّعاء.

وفصّل بعض العلماء بين الإمام والمنفرد وبين المأموم؛ فقال: إن المأمومَ ينظر إلى إمامه ليتحقق من متابعته؛ ولهذا قال البراء بن عازب: «كان رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم إذا قال: سَمِعَ اللَّهُ لمن حَمِده، لم يَحْنِ أحدٌ منا ظهرَه؛ حتى يقعَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ساجداً، ثم نقعُ سجوداً بعده»، قالوا: فهذا دليل على أنهم ينظرون إليه.

وأما النَّظَرُ إلى السَّماءِ فإنه محرَّم؛ لأنَّ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم نَهى عن ذلك، واشتدَّ قوله فيه حتى قال: «لينتهينَّ - يعني الذين يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة - أو لَتُخطفنَّ أبصارُهم». رواه البخاري ومسلم. وفي لفظ: «أو لا ترجع إليهم»، وهذا وعيد، بل قال بعض العلماء: إن الإنسان إذا رَفَعَ بصرَه إلى السماءَ وهو يُصلي بطلتْ صلاتُه، ولكن جمهورُ أهل العلم على أنَّ صلاتَه لا تبطل برَفْع بصره إلى السماء، لكنَّه على القول الرَّاجح آثمٌ بلا شك؛ لأن الوعيد لا يأتي على فعْل مكروه فقط. (الشرح الممتع لابن عثيمين ٣٩/٣).

النهي عن الالتفات في الصلاة:

يكره في الصلاة الالتفات، أي أن يلتفت عن يمينه وشماله برأسه، وهذا باتفاق أهل العلم. (شرح زاد المستقنع للشيخ الحمد ١٤٠/٢٤).

وقال الحنابلة: وتبطل الصلاة إن استدار المصلي بجملته أو استدبر القبلة، لتركه الاستقبال بلا عذر، ما لم يكن في الكعبة، أو في شدة خوف، فلا تبطل إن التفت بجملته، أو استدبر القبلة، لسقوط الاستقبال حينئذ، ولا تبطل الصلاة لو التفت بصدره ووجهه؛ لأنه لم يستدر بجملته.

ودليل كراهة الالتفات لغير حاجة باتفاق المذاهب: حديث عائشة، قالت: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التَّلفت في الصلاة، فقال: اختلاس يختلسه الشيطان من العبد» رواه أحمد والبخاري، وحديث أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يزال الله مقبلاً على العبد في صلاته، ما لم يلتفت، فإذا صرَف وجهه، انصرف عنه» (رواه أحمد والنسائي) (الفقه الإسلامي وأدلته وَهبة الزحَيْلي ١٤٠/٢).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

الحلقة الثامنة

المذهب الوسطي لأبي الحـ

ذكر طرف من تقارير أهل العلم والفضل بتخلي متأخري الأشاعرة عن مذهب شيخهم الوسطي في توحيد الصفات، وتخليه عنهم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد:

خلافًا لما هو رائج الآن عمن ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري في الصفات، وعما تأثروا فيه بالمعتزلة والجهمية وغيرهم، ومدى موافقته بالمقابل من دونهم لمعتقد سلف هذه الأمة.. أقول: إنه قد شهد له جمع غفير من أهل العلم من المحققين بموافقته لمعتقد سلف هذه الأمة، ومن هؤلاء:

إعداد/ أ.د. محمد عبد العليم الدسوقي
الأستاذ بجامعة الأزهر

١- شيخ زمانه الحافظ البيهقي (ت ٤٥٨)، فبعد ثناءٍ على الأشعري قال - فيما نقله عنه ابن عساكر في (التبيين ص١٠٣: ١٠٥) -: «أخذ - الأشعري - أقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة في أصول الدين، فنصرها بزيادة شرح، وتبيين أن ما قالوا في الأصول وجاء به الشرعُ صحيح في العقول، خلاف ما زعم أهل الأهواء من أن بعضه لا يستقيم في الآراء، فكان في بيانه تقوية ما عليه أهل السنة والجماعة، ونصرة أقاويل من مضى من الأئمة».. قال: «وحين كثرت المبتدعة في هذه الأمة، وتركوا ظاهر الكتاب والسنة.. أخرج الله من نسل أبي موسى الأشعري إماماً قام بنصرة دين الله، وجاهد بلسانه وبيانه مَن صد عن سبيل الله، وزاد في التبيين لأهل اليقين أن ما جاء به الكتاب والسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة مستقيمٌ على العقول الصحيحة والآراء».

٢- كما نقل الإجماع على ما سبق ذكره، أبو القاسم القشيري الملقب بـ (زين الإسلام وشيخ المشايخ) (ت ٤٦٥)، قال - فيما رواه عنه السبكي في (طبقاته ٣/ ٣٧٤) وابن عساكر في (التبيين ص ١١٣): «اتفق أصحاب الحديث على أن الأشعري كان إمامًا من أئمة أصحاب الحديث، ومذهبه مذهب أصحاب الحديث، تكلم في أصول الدين على طريقة أهل السنة وردّ على المخالفين من أهل الزيغ والبدع، وكان على المعتزلة والمبتدعين من أهل القبلة والخارجين من الملة سيفاً مسلولاً» ا.هـ.. وقد نقل ابن عساكر هذا الاتفاق عن كثير من العلماء.

٣- والإمام الحجة ابن درباس (ت ٦٢٢) قال في رسالته (الذَّبُّ عن الأشعري) ص٩٩: إن كتاب (الإبانة) «هو الذي استقر عليه أمر الأشعري فيما كان يعتقده.. وكل مقالة تُنسب إليه الآن مما يخالف ما فيه، فقد رجع عنها وتبرأ إلى الله منها، وقد نص فيه على أنه ديانته التي يدين الله بها، وروى وأثبت ديانة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث الماضين، وقول أحمد بن حنبل، وأنه ما دل عليه الكتاب والسنة».

٤- والحافظ الذهبي (ت ٧٤٨)، فقد ذكر في كتابه العلو ص ١٦٣ أن الأشعري بعد تحوله «صار متكلماً للسنة، ووافق أئمة الحديث، فلو انتهى أصحابنا المتكلمون إلى مقالة أبي الحسن ولزموها، لأحسنوا.. ولكنهم خاضوا كخوض حكماء الأوائل في الأشياء، ومشوا خلف المنطق فلا قوة إلا بالله».

٥- والإمام السبكي (ت ٧٧١)، قال: «واعلم أن الأشعري لم يبدع رأياً ولم يُنشئ مذهباً، وإنما هو مقرِّرٌ لمذاهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقد على طريق السلف نطاقًا وتمسك به، وأقام الحجج والبراهين عليه فصار المقتدي به في ذلك السالك سبيله في الدلائل، يسمى: أشعريًا».. ثم نقل عن

ـــسن الأشعري في توحيد الصفات

المأيرقي المالكي قوله: «لم يكن أبو الحسن أول متكلم بلسان أهل السنة، إنما جرى على سَنن غيره وعلى نصرة مذهب معروف، فزاد المذهب حجة وبياناً، ولم يبتدع مقالة اخترعها ولا مذهباً به، ألا ترى أن مذهب أهل المدينة نُسب إلى مالك، ومن كان على مذهب أهل المدينة يُقال له مالكي.. كذلك الأشعري لا فرق، ليس له في مذهب السلف أكثر من بسطه وشرحه وتآليفه في نصرته».

ومما أفاده: أن الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة في العقائد يدٌ واحدة، كلهم على رأي أهل السنة والجماعة يدينون لله تعالى بطريق شيخ السنة أبي الحسن الأشعري، وأن عقيدة الأشعري بالجملة، هي عينها ما تضمنته عقيدة أبي جعفر الطحاوي التي تلقاها علماء المذاهب بالقبول ورضوها عقيدة [ينظر طبقات الشافعية ٣/ ٣٦٥ وما بعدها].. كذا بما يعني أن الخارج عنهما خارج عن مذاهبهم.

٦- والحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤)، ذكر في (طبقاته١/ ٢٠٥) أن الأشعري في آخر مراحله قال بـ «إثبات ذلك كله - يعني الصفات العقلية السبعة، وهي: (الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام)، والخبرية كـ(الوجه، واليدين، والقدم، والساق، ونحو ذلك) - من غير تكييف ولا تشبيه، جرياً على منوال السلف».. وقد نقل ذلك عن ابن كثير: المرتضى الزبيدي في كتابه: (إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين) ٢/ ٣.

٧- وفي شرح عقيدة الشيخ شمس الدين محمد بن الأصفهاني (ت ٦٨٨) -الذي قيل: إنه لم يدخل إلى الديار المصرية أحد من رءوس علماء الكلام مثله - ما نصه: «إن كثيراً من متأخري أصحاب الأشعري، خرجوا عن قوله إلى قول المعتزلة أو الجهمية أو الفلاسفة» [شرح الأصفهانية لابن تيمية تقديم حسنين مخلوف مفتي الديار المصرية الأسبق ص ٧٨].



٨- وفي بيانِ وتقرير مخالفة الأشاعرة بتعطيلهم ما خلا صفات المعاني للأشعري ، ولما أجمع عليه أهل السنة ودرج عليه سلف الأمة، يقول شارح السفارينية ص١٠٦: «التعطيل الذي ينفيه أهل السنة والجماعة ينقسم إلى أقسام»، وذكر منها: «الأول تعطيل جزئي: ويكون بإثبات الأسماء وإثبات سبع من الصفات وإنكار الباقي، وهذا مذهب الأشاعرة، الأشاعرة يثبتون الأسماء لله عز وجل ويثبتون سبعاً من الصفات وينكرون الباقي، فإذا جاءت النصوص بدلالة على الباقي حرّفوها، فيكون هؤلاء عطلوا النصوص وعطلوا الصفات فيما نفوه، فمثلاً يقولون في معنى (رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ) [المائدة: ١١٩]: (أي: أثابهم)، فيفسرون الرضا بالمفعول المنفصل عن الله وهو: (الثواب)، فهؤلاء عطلوا الصفة وهي الرضا، وعطلوا النص عن مدلوله، وهو دلالته على الرضا، إلى الثواب».

٩- وكان مما قال الإمام الآلوسي - مفتي بغداد ومرجع أهل العراق (ت ١٢٧٠هـ)- في تفسيره (روح المعاني) ١/ ١٠٣: «جَعْل الرحمة - يعني المتعلقة بحق الله، والتي صرفها المتكلمون عن ظاهرها إلى المجاز، بحجة استحالة اتصافه تعالى بها؛ لما تحمله في الظاهر بالنسبة لهم من معنى رقة القلب - مجازاً، نزعة اعتزالية، قد حفظ الله منها سلف المسلمين وأئمة الدين، فإنهم أقروا ما ورد، على ما ورد.. وأثبتوا لله ما أثبته له نبيه صلى الله عليه وسلم من غير تصرف فيه بكناية أو مجاز، وقالوا: لسنا أغير على الله من رسوله، لكنهم نزّهوا مولاهم عن مشابهة المحدثات، ثم فوّضوا إليه سبحانه تعيين ما أراده.. و(الأشعري إمام أهل السنة) ذهب في النهاية إلى ما ذهبوا إليه، وعوّل في (الإبانة) على ما عولوا عليه.. ثم سرد - الأشعري - الكلام في بيان عقيدته، مصرحاً بإجراء ما ورد من الصفات على حالها

بلا كيف، غير متعرض لتأويل ولا ملتفت إلى قال وقيل، فما نقل عنه من تأويل صفة الرحمة، إما غير ثابت أو مرجوع عنه، والأعمال بالخواتيم»..

وراح الآلوسي يعلق مردفاً ومتعجباً: «والعجب من علماء أعلام ومحققين فخام، كيف غفلوا عما قلناه وناموا عما حققناه، ولا أظنك في مرية منه، وإن قل ناقلوه وكثر منكروه، فـ(كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ) (البقرة/ ٢٤٩)».

١٠- وشهد للأشعري بما ذكرنا الشيخ حافظ حكمي (ت ١٣٨٨هـ)؛ حيث قال في كتابه (معارج القبول) ١/ ٣٠٩ ما نصه: «فكلامه - يعني الأشعري - يدل على أنه مخالف للمنتسبين إليه من المتكلمين في إثباته الاستواء والنزول، والرؤية والوجه، واليدين، والغضب والرضا، وغير ذلك، وقد صرّح في مقالاته بأنه قائل بما قال الإمام أحمد بن حنبل وأئمة الحديث، معتقدٌ ما هم عليه، مثبتٌ لما أثبتوه، محرِّمٌ ما أحدث المتكلمون من تحريف الكلم عن مواضعه، وصرف اللفظ عن ظاهره، وإخراجه عن حقيقته، وبالجملة فبينه وبين المنتسبين إليه بونٌ بعيد، بل هو بريء منهم وهم منه براء، والموعد الله، وكفى بالله حسيباً، وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله».



١١-والشيخ محب الدين الخطيب (ت ١٣٨٩هـ)، حيث نص - بهامش كتابه (المنتقى من منهاج السنة) ص ٤١- على أن الأشعري «محّض طريقته، وأخلصها لله، بالرجوع الكامل إلى طريقة السلف في إثبات كل ما ثبت بالنص من أمور الغيب التي أوجب الله على عباده إخلاص الإيمان بها.. وهذا ما أراد أن يَلقى الله عليه.. وكل ما خالف ذلك مما يُنسب إليه، أو صارت تقول به الأشعرية، فالأشعري رجع عنه إلى ما في كتاب (الإبانة) وأمثاله».. إلى أن قال: «إن أقوال الأشعري تطورت بتطوره الفكري من الاعتزال إلى الجدل الكلامي مع المعتزلة تزييفاً لمقالاتهم، ثم أحسن الله خاتمته بالرجوع إلى مذهب السلف خالصاً صافياً»..

وأردف يقول: «أما الأشعرية، أي المذهب المنسوب إلى الأشعري في علم الكلام، فكما أنه لا يمثل الأشعري في طور اعتزاله، فإنه ليس من الإنصاف أن يُلصق به فيما أراد أن يَلقى الله عليه، بل هو مستمد من أقواله التي كان عليها في الطور الثاني، ثم عدل عن كثير منها في آخرته التي أتمها الله عليه بالحسنى».

١٢- ويقول إسماعيل بن محمد الأنصاري المحدث الأصولي اللغوي (ت ١٤١٧هـ): «كان الأشعري الذي تنتسب إليه الأشعرية، ممن اهتدى بفضل الله إلى التمسك بنصوص الكتاب والسنة، وعدم معارضتهما بما سواهما، وذلك بعد ما تلقى دروس الاعتزال عن زوج أمه الجبائي، فاثبت لله ما أثبته لنفسه دون تعطيل ولا تأويل ولا تكييف ولا تمثيل، وصنّف في بيان ذلك كتابه: (الإبانة في أصول الديانة)، وإن كان أكثر المنتسبين إليه في الأعصر المتأخرة جهل ذلك أو تجاهله، فصار يعارض عقيدة السلف بأشياء يزعم أنها عقيدة الأشعري، وهو في الحقيقة براء منها، وصار ذلك خطراً عظيماً على العقيدة، وجناية كبرى على ذلك الإمام الذي وُفق للرجوع إلى الحق» [(أبو الحسن الأشعري) لحماد الأنصاري ص ٣].

١٣- كما شهد للأشعري بما ذكرنا لفيفٌ من أهل التحقيق من الدكاترة:

منهم من الأردن د. راجح الكردي أستاذ العقيدة في الجامعة الأردنية؛ حيث أوضح في كتابه (علاقة صفات الله بذاته) ص ٢٠٧ أن الأشعري «لما استقر به الحال، أحسن الله عاقبته، فختم حياته برأيه هذا الموافق للسلف، بإثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، صفات بلا كيف، وهو مع هذا محافظ على مبدأ التنزيه ومقاوم للمشبهة، كما هو مقاوم للمعتزلة في الصفات جميعاً فهو يثبتها وهم ينفونها، ويبدو أنه رأى أن الأسلم والأحوط هو إثبات هذه الصفات مع التنزيه والابتعاد عن التأويل فيها»..

ومن الكويت د. فيصل بن قزاز الجاسم يقول في كتابه (الأشاعرة في ميزان أهل السنة) ص ٧٤١ بعد أن نقل من النصوص ما به تقام الحجة: «وجميع من نقلنا نصوصهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة ومن لم ننقل عنهم من السلف، مخالفون للأشاعرة في أصول الاعتقاد، ومبطلون لأقوالهم ومذهبهم»..

ومن بلاد الحرمين الشريفين د. سعود الخلف رئيس قسم العقيدة في كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية في مقدمة الكتاب السالف الذكر ص ٢٠، قال: «وحقيقة الأمر أن الأشاعرة خالفوا أهل السنة، وخاصة المتأخرون منهم مخالفة جذرية في مسألة الصفات»..

و د. عبد المحسن بن حمد العباد الذي ذكر في كتابه (قطف الجنى الداني) شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ص ٣٧، ٣٨ أن أمر أبي الحسن الأشعري «انتهى إلى اعتقاد ما كان عليه سلف الأمة.. فبين أنه في الاعتقاد على ما كان عليه إمام أهل السنة الإمام أحمد وغيره من أهل السنة، وهو: إثبات كل ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات على ما يليق بالله، من غير تكييف أو تمثيل، ومن غير تحريف أو تأويل»..

ومن لبنان د. الدمشقية، يقول في كتابه (أبو حامد الغزالي والتصوف) ص ٣٦٥: «الأشعري رجع في آخر مراحل حياته عما كان عليه من التأويل والخوض في الله وصفاته بغير علم، وسلك مسلك أهل الإثبات.. ولكن المنتسبين له لم يلتفتوا إلى ما جاء في كتبه المتأخرة كالإبانة وغيره.. ويؤثرون عليها كتبه المتقدمة التي خاض بها في صفات الله تبديلاً وتعطيلاً، وسلك فيها مسلك أهل الكلام»..

ومن مصر الكنانة د. عبد الله شاكر رئيس جماعة أنصار السنة ورئيس مجلس شورى علماء السنة وعضو هيئة الحقوق والإصلاح، وذلك قوله في مقدمته لتحقيق (رسالة الأشعري إلى أهل الثغر) ص٧٦: «أتباع الأشعري والمنتسبون إليه يضعون مذهباً لأنفسهم بعيداً كل البعد عن عقيدة الأشعري التي لقي الله عليها، فأوّلوا الصفات التي أثبتها الأشعري لله عز وجل، وتلقى الناس عنهم ذلك على أنه مذهب الأشعري، وقد سار في هذا المنوال جميع المتأخرين المنتسبين إليه بلا استثناء، كالفخر الرازي والنسفي وابن عاشور والبيجوري وغيرهم كثير، بل إن كثيراً من الجامعات الإسلامية اليوم تدرس هذا المذهب المنسوب إلى الأشعري على أنه مذهب الأشعري، والأشعري منه بريء، كما يُلاحَظ أنهم يطلقون على هذا المذهب، (مذهب أهل السنة والجماعة) باعتبار أنه منسوب لإمام أهل السنة والجماعة وهو الأشعري، وكل ذلك زعم باطل وقول غير سديد».

ثم يقول مردفاً: «وأكتفي بما سبقت الإشارة إليه كدليل واضح لما أردت الوصول إليه، من حقيقة أن بين الأشعري والأشاعرة فجوة كبيرة، أحدثها المنتسبون إليه بخروجهم عن عقيدته، وهذا ضياع للحقيقة وهدم لمكانة الأشعري السلفية التي رجع إليها بانتسابه إلى الإمام أحمد.. ولقد تبين لكثير من العلماء والباحثين مدى مخالفة الأشاعرة لإمامهم الأشعري، فنصوا على ذلك في كتبهم».

١٤- وساق د. شاكر في هذا، قول شيخ الإسلام ابن تيمية في موافقة صريح المعقول ٢/ ٩: «لم يكن الأشعري وأئمة أصحابه على هذا، بل كانوا موافقين لسائر أهل السنة في وجوب تصديق ما جاء به الشرع مطلقاً، والقدح فيما يعارضه، ولم يكونوا يقولون: الأدلة السمعية لا تفيد اليقين، بل كل هذا مما أحدثه المتأخرون الذين مالوا إلى الاعتزال والفلسفة من أتباعهم».

١٥- وفي موسوعة دائرة المعارف البريطانية ٣/ ٤٣٤، ٤٣٥: «أن منهج الأشعري في التدليل في عين القارئ الأوربي، لا يختلف للنظرة الأولى عن منهج أتباع أحمد بن حنبل، ذلك أن كثيراً من حججه يقوم على تفسير القرآن والحديث.. وانتهى الأمر في القرون المتأخرة بأن أصبح الكلام عقلياً تماماً، على أن هذا كان بعيداً أشد البعد من مزاج الأشعري نفسه».

وابتناء على كل ما سبق ذكره، فإن تجاهل آخر ما استقر عليه أمر الأشعري، وإنكار مثل هذه النصوص التي تكشف في صراحة ووضوح عن أهم وأشرف مراحله، وعن مخالفة أتباعه له، هو من العبث بتاريخ هذا الرجل، وليس عملاً علمياً يستحق صاحبه أن يُناقش أو يُؤخذ عنه علم، فضلاً عن أن يؤبه به في معتقد، بل إن ذلك - برأيي - من التعصب المقيت والمذموم الذي من شانه أن يَضيع معه الحق والحقيقة معاً.

وكنا قد ذكرنا في بداية هذا المجمل، وعرفنا كيف مرَّ الأشعري بثلاث مراحل، كان آخرها رجوعه إلى مذهب السلف الصالح عليهم الرضوان..

ويبقى السؤال: هل تعدّى أمر التراجع لما كان عليه السلف هذا، غيرَ الأشعري من أئمة أهل العلم حتى نستوثق من صحة وصدق هذا التوجه، أم اقتصر عليه وحده؟.. هذا ما سنجيب عنه في الحلقة التالية بمشيئة الله.

نسأل الله تعالى أن يهدينا لأحسن الأقوال والأعمال، ويختم لنا بالإيمان، والحمد لله رب العالمين.

القصة في كتاب الله



قصة ذي القرنين

«ويسألونك عن ذي القرنين»

الحلقة الأولى

إعداد/ عبد الرازق السيد عيد

أخي الكريم: نحن اليوم مع قصة رجل اختلف الناس في شأنه اختلافًا بينًا: اختلفوا في اسمه؟ واختلفوا كذلك أهو ملك أم نبي؟ واختلفوا في مكانه وزمانه، وإذا حدث هذا من الناس فإن القرآن حين يقصُّ علينا فإنه يأتي بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويأتينا بخبر الصدق الذي لا كذب فيه لأنه تنزيل من حكيم حميد.

قال الله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ
سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ
وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ
مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا
قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ
حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ
فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ
جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا
(٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ
نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا
لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ
وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣)
قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ
نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا
مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا
(٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ
انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا
(٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا
(٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ
وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا» [الكهف: ٨٣- ٩٨].

وإذ نتناول الحديث حول هذا الموضوع من خلال هذه الآيات فإننا نتناول فيه الوقفات الآتية:

الوقفة الأولى: مع قوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ) [الكهف: ٨٣]، وفيها مسائل:

١- وسواء كان السؤال من اليهود أو من المشركين؛ فإن إجابة القرآن عن الأسئلة التي يتعرض لها النبي دليل على مواكبة القرآن لمسيرة الدعوة، ومؤازرة النبي، وتأييده، ونزول الوحي المباشر من السماء بالإجابة عن الأسئلة التي يتعرض لها النبي صلى الله عليه وسلم والتي لم يكن يعرف إجابتها سواء كانت في أمور الأحكام كما سألته التي تجادله في زوجها أو في أمور الغيب.

٢- وهذا السؤال كان عن أمر غيبي بالنسبة للنبي وللعرب في مكة على وجه الخصوص، فأعلمه الله من علم الغيب ما يثبّتُ به فؤاده ويؤيد به رسالته؛ كما قال تعالى: «عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا» [الجن: ٢٦- ٢٨].

٣- هل هناك علاقة بين هذه القصة، وقصة موسى والخضر؟

قال صاحب نظم الدرر:

«كانت قصة موسى مع الخضر مشتملة على الرحلات من أجل العلم، وجاءت قصة ذي القرنين مشتملة على الرحلات من أجل الجهاد في سبيل الله».

٤- في اسمه ووصفه:

والحقيقة التي لا مراء فيها أن القرآن لم يصرِّح باسمه ولم يأت تصريح باسمه في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المعتمدة، ولم يأت في القرآن سبب لتسميته بذي القرنين، ولكن أقرب ما يتفق مع نصوص القرآن الكريم أنَّ ذا القرنين كناية عن اتساع ملكه، وأنه مَلَك المشرق والمغرب، ومما لا شك فيه أنه ملك الدنيا شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، لكن كان اتساعه أكثر في ناحيتي الشرق والغرب.

قال سفيان الثوري - رحمه الله -: «بلغني أنه ملك الأرض كلها أربعة: مؤمنان وكافران، أما المؤمنان فهما سليمان النبي، وذو القرنين، وأما الكافران فنمرود وبختنصر». اهـ.

وخلاصة ما تقدم أن ذا القرنين عبدٌ صالح مكَّن الله له في الأرض، وبسط له في الملك فاعترف بنعمة ربه وشكره حق شكره بتحقيق العدل والحزم في الأرض وإقامة التوحيد، والأرجح أنه لم يكن نبيًا.

الوقفة الثانية مع قوله تعالى:

«قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا» [الكهف: ٨٣].

وليس كل تفاصيل قصته بل طريق منها وهو الذي يفيدكم وتنتفعون به، وهذا توجيه من القرآن الكريم لنا لنشتغل ونهتم بالمفيد من الأمور، ونلتمس العبرة من هذا القصص القرآني الكريم؛ لأن هذا هو المقصود الذي ساق الله إلينا هذا القصص من أجله.

قال ابن عاشور - رحمه الله -: «ولم يتجاوز القرآن ذكر هذا الرجل بأكثر من لقبه المشتهر به إلى تعيين اسمه وبلاده وقومه، فكان الاقتصار على ما يفيد الأمة من هذه القصة ؛ فلذلك قال الله تعالى: «قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا» [الكهف: ٨٣]. ثم قال: «والذكر؛ التذكر والتفكر، أي سأتلو عليكم ما به التذكر، فجعل المتلو نفسه ذكرًا مبالغة بالوصف بالمصدر، ولكن القرآن جاء بالحق الذي لا تخليط فيه من حال الرجل الذي يوصف بذي القرنين بما فيه إبطال لما خلط به الناس من أوهام خرافية وأكاذيب». اهـ بتصرف. هذا والله سبحانه وتعالى نسأل أن يلهمنا الصواب في القول والعمل.

وإلى استكمال القصة في لقاءات تالية، نسأل الله تعالى التوفيق.

وقفات شرعية مع تطبيق الشريعة الإسلامية

الرد على الشبهات المثارة على حد الرجم

الحلقة الثالثة عشرة

إعداد/ المستشار/ أحمد السيد علي

الحمد لله حمدًا لا ينفد، أفضل ما ينبغي أن يُعبد، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تعبد، أما بعد: فما يزال الحديث موصولاً عن وقفات شرعية مع تطبيق الشريعة الإسلامية، وما يزال الرد على الشبهات المثارة حول حد الرجم، بعد أن فنّدنا معظم شبهاتهم في الحلقات السابقة، وظهر جليا أنها أوهى من بيت العنكبوت، وأنها لم تصمد أمام الصحيح الصريح من المنقول (من الكتاب والسنة) أو المعقول، وإليك شبهة أخرى والرد عليها.

الشبهة الثانية والعشرون:

قالوا: «بالنسبة لمن يرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم رجم الغامدية وماعزًا.. إن الرجم تم اجتهادًا؛ لأن الزنى لم يكن له حكم في الكتاب، وبالتالي نزلت آية الحد بعد الرجم. قبل هذا كان اجتهادًا مبنيا على الأحكام السائدة في ذلك العصر، فالرجم كان حدا توراتيا مؤكدًا».

الرد على هذه الشبهة:

إن قول الصحابي عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه لما سئل « هل رجم رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليْهِ وسلم؟ « فقال: نعمْ، ثم سئل: « بعْدما أنْزلتْ سُورةُ النُور أمْ قبْلها؟ « قال: لا أدْرِي»: ليس فيه حجة لمن قال: إن الرجم لم يقع بعد آية النور، وإنها نص في عموم الزناة؛ لأن الصحابي الجليل ابن أبي أوفى قال: إنه لا يدري، وهو لم ينفِ ولم يثبت شيئاً، وقد ثبت أن الرجم وقع بعد نزول سورة النور ؛ فآية النور نزلت بعد حادثة الإفك، وأبو هريرة رضي الله عنه كان أسلم بعدها، وقد حضر إقامة حد الرجم على زانٍ محصن، فعنْ أبِي هُريْرة رضِي اللهُ عنْهُ قال: « أتى رجُل رسُول الله صلى اللهُ عليْه وسلم وهُو في المسْجد فناداهُ فقال: يا رسُول الله إنِي زنيْتُ، فأعْرض عنْهُ حتى ردد عليْه أرْبع مرات، فلما شهد على نفسه أرْبع شهادات دعاهُ النبيُ صلى اللهُ عليْه وسلم فقال: (أبك جُنُونٌ؟) قال: لا قال: (فهلْ أحْصنْت) قال: نعمْ فقال النبيُ صلى اللهُ عليْه وسلم: (اذْهبُوا بِهِ فارْجُمُوهُ). [رواه البخاري ومسلم].

قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري شرح صحيح البخاري: «وقد قام الدليل على أن الرجم وقع بعد سورة النور؛ لأن نزولها كان في قصة الإفك، واختلف هل كان سنة أربع أو خمس أو ست على ما تقدم بيانه، والرجم كان

بعد ذلك فقد حضره أبو هريرة وإنما أسلم سنة سبع وابن عباس إنما جاء مع أمه إلى المدينة سنة تسع».

ومن ثم يتضح تهاوى هذه الشبهة والتي بنيت على أن الرجم كان اجتهادًا من النبي صلى الله عليه وسلم نُسخ بالجلد الوارد بسورة النور؛ إذ ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الرجم لاحق على سورة النور ومن ثم فلا وقوع للنسخ. وإنما جاء الإسلام موافقا للتوراة في رجم المحصن، والقاعدة أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يُنسخ، وقد جاء في شريعتنا ما يؤكده. فيكون القول بأن الرجم كان حدا توراتيا مؤكدًا، مخالفا للواقع وحقيقة الأمر، وللدليل الشرعي من الكتاب والسنة.

الشبهة الثالثة والعشرون:

أورد الدكتور مصطفى محمود في أحد مقالاته في جريدة الأهرام شبهات يرى أنها تثبت عدم وجود عقوبة الرجم في الإسلام، وقد نقلها الدكتور أحمد السقا في كتابه « لا.. رجم للزانية»، نذكر بعضها والرد عليها:

الشبهة الأولى:

أن الله تعالى بيّن للرجل في سورة النور أنه إذا رأى رجلاً يزني بامرأته ولم يقدر على إثبات زناها بالشهود فإنه يحلف أربعة أيمان أنه رآها تزني، وفي هذه الحالة يُقام عليها حد الزنا، وإذا هي ردت أيمانه عليه بأن حلفت أربعة أيمان أنه من الكاذبين فلا يُقام عليها الحد لقوله تعالى: « وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ » [النور: ٦- ٩]

وجه الاستدلال: هو أن هذا الحكم لامرأة محصنة. وقد جاء بعد قوله تعالى: « ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ» [النور: ٢]، وحيث قد نص على عذاب بأيمان في حال تعذر الشهود فإن هذا العذاب يكون هو المذكور في هذه الجريمة والمذكور هو: « ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » [النور: ٢] أي العذاب المقرر عليهما وهو الجلد. وفي آيات اللعان: (ويدرأ عنها العذاب) أي عذاب الجلد. وفي حد نساء النبي: «يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ» [الأحزاب: ٣٠] أي عذاب الجلد؛ لأنه ليس في القرآن إلا الجلد عذاب على هذا الفعل. وفي حد الإماء: «فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ » [النساء: ٢٥] المذكور في سورة النور وهو الجلد.

الرد على هذه الشبهة:

سبق وأن ذكرنا - في الرد على الشبهات السابقة - أن العذاب يأتي بمعنى القتل وبمعنى إقامة الحد، ومن ثم فإن القول بأن العذاب المذكور في آية اللعان هو الجلد المذكور في أوائل سورة النور، مجاف للحقيقة، ويكون العذاب المذكور هو إقامة حد الرجم.

الشبهة الثانية:

قوله تعالى: « ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ» [النور: ٢] الألف واللام في (ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى) نص على عدم التمييز بين الزناة سواءً محصنين أو غير محصنين.

الرد على هذه الشبهة:

قوله تعالى: « ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ» وإن كان عامًا في جميع الزناة محصنين أم غير محصنين، إلا أن أحاديث الرجم خصّصت عموم الآية، فأصبح هذا العموم مخصوصًا بغير المحصنين؛ إذ إن من السنة ما هو مخصّص لعموم القرآن.

وبهذا ينتهي الرد على الشبهات التي أُثيرت حول الرجم في الشريعة الإسلامية ، وقد تبين من عرض هذه الشبهات مدى ضعفها وأن الأدلة واضحة على ثبوت هذا الحد.

اللهم انصر دينك وكتابك وعبادك الصالحين، وائذن لشريعتك أن تحكم ولكتابك أن يسود، وللحديث بقية، والحمد لله رب العالمين.

مقدمة في فقه النوازل

الحلقة الخامسة

مناهج الأئمة الأربعة وأتباع مذاهبهم في استنباط الأحكام

إعداد/ د. محمد يسري

الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد اتفق الأئمة الأربعة، وأتباع مذاهبهم من الفقهاء، على اعتماد الأصول الأربعة لمصادر التشريع، وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وإن وُجدت بينهم اختيارات خاصة في مسائل أصولية تتعلق بهذه المباحث الأربعة والمصادر العامة للتشريع، وانفرد بعضهم بالعناية بأصول أخرى إضافية، وعرف في مذهبه الفقهي التعويل عليها والاستناد إليها.

مذهب الإمام مالك في الحكم على النوازل:

١- عمل أهل المدينة:

مالك إمام دار الهجرة يَعتبر إجماع أهل المدينة ويَعدّه حجة شرعية ودليلاً من الأدلة المعتبرة خلافًا لبقية المذاهب الفقهية؛ وذلك لأنه رأى أن الناسَ تبعٌ لأهل المدينة من المهاجرين والأنصار؛ ولما اختصهم الله به من هجرة نبيهم إليهم وحياته بين أظهرهم وحضورهم الوحي والتنزيل، ومعرفتهم بالفقه والتأويل.

حتى قال مالك رحمه الله في رسالته إلى الليث رحمه الله: «فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهرًا معمولاً به لم أر لأحد خلافه، للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز لأحد انتحالها ولا ادعاؤها». [ترتيب المدارك، للقاضي عياض (٤٣/١)]

وقد جاء فقهاء المالكية بعد إمامهم فزادوا الأمر وضوحًا وتفصيلاً؛ فأقاموا تفرقة بين عمل أهل المدينة المبني على الاجتهاد، وبين العمل المبني على النقل؛ فالثاني حجة دون الأول على رأي طائفة من المالكية. [وقد فصل ابن تيمية في هذه المسألة تفصيلاً مفيدًا في مجموع الفتاوى، (٢٩٤/٢٠) وما بعدها].

٢- الترجيح عمومًا والبُعد عن الغرائب:

وقد وُجد في مذاهب أخرى ما يدل على مراعاة الترجيح بالعمل دون ذكر قُطر بعينه؛ فالإمام أحمد رحمه الله قال: «شر الحديث الغرائب التي لا يُعمل بها ولا يُعتمد عليها» [طبقات الحنابلة، لأبي يعلى، (١٤٠/٢)]، وهو يدل على اعتبار العمل عنده.

٣- ما عليه العمل ولو كان حديثًا ضعيفًا أو عُرفًا:

كذا نُقل عنه أنه عمل بحديث ضعيف؛ لكون العمل عليه، وهو حديث «العرب أكفاء إلا حائكًا أو حجامًا» [أخرجه: البيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٤/٧)، وابن عدي في «الكامل» (٩٥/٥، ٢٠٩)]؛ فقيل له: كيف تأخذ به وأنت تضعّفه؟

قال: العمل عليه.

قال الموفق: أي: أنه يوافق أهل العرف. [العرف، لعادل قوته، (١٢١/١)].

وكذلك يرجح بالعمل عند الشافعية؛ فقد ذكر ابن الصلاح رحمه الله في أحكام المفتي والمستفتي: أن القول القديم إذا قيل فيه أن جرى به العمل، فإن هذا يدل على أن القول القديم هو المفتى به. [أدب الفتوى، لابن الصلاح، (ص٩٠)].

٤- إعمال خبر الآحاد ما لم يخالف المنقول:

وبيّنوا حال خبر الآحاد مع عمل أهل المدينة؛ فما كان من الأخبار مطابقًا وموافقًا فقد تأكد الأمر بالعمل، وما كان مخالفًا فإن كان عملهم من طريق النقل ترك به الخبر،

وإن كان إجماعهم اجتهادًا قُدم الخبر عند الجمهور، وفيه خلاف بين المالكية.
وما لم يكن ثم عمل بخلاف ولا وفاق خبر الواحد؛ فالمصير إلى خبر الواحد ولا بد.

٥- مراعاة المصالح المرسلة:

كما اعتبر مالك رحمه الله من أكثر الفقهاء مراعاة للمصالح المرسلة وأخذًا بها، حتى عُدَّتْ من أصوله التي انفرد بمزيد العناية بها، وبذلك ننتهي إلى أن أصول المذهب هي: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، والمصالح المرسلة.
ويُلاحظ أنه رد إجماع أهل المدينة إلى دليل السنة.

٦- الاستحسان وقول الصحابي ما لم يخالفه أحد:

وعلى الصحيح فإنه يعتبر قول الصحابي حجة بشرط عدم المخالف، ويعمل بالاستحسان، وذكر الزرقاني رحمه الله أربع مسائل صرح مالك فيها بالاستحسان، فذكره بلفظه، وإلا فقد عمل به فيما فوق تلك المسائل، وأما تلك المسائل فقد انفرد باستحسانها دون باقي الأئمة [شرح الزرقاني على موطأ مالك (٦/١٧٦)].
كما اشتهر عنه مراعاة الخلاف؛ كما نقل عن الإمام أحمد رحمه الله ذلك أيضًا.[المغني، لابن قدامة، (٣/٢٤)].

مذهب الإمام أبي حنيفة في الحكم على النوازل:

١- الاستحسان وتحصيل المصالح بالاجتهاد:

وأما الإمام أبو حنيفة رحمه الله فقد أكثر من الاستدلال بالاستحسان، ومعلوم اعتماده على رفع الحرج والمشقات، وتحصيل المصالح والمنافع بالاجتهاد، وذلك حين يؤدي القياس إلى غلو أو ضرر أو مشقة شديدة.

٢- مراعاة العُرف:

كما ظهر في فقهه مراعاة الأعراف والعمل بموجبها، وهو أمر أدى إلى مرونة ظاهرة في مذهبه، ويُسْر بالغ في فروعه ومسائله.

٣- العمل بحديث الآحاد بشروط:

كما عُرف للحنفية موقف من أحاديث الآحاد؛ حيث لم يكتفوا بما اشترطه أهل الحديث وجمهور الفقهاء من شروط لقبوله؛ بل أضافوا شروطًا منها:
١- ألا يكون خبر الواحد مما تعمّ به البلوى، واحتج أبو حنيفة لردّه بأن ما تعم به البلوى يكثر وقوعه فيكثر السؤال عنه، وما يكثر السؤال عنه يكثر الجواب عنه فيقع التحدث به كثيرًا، وينقل نقلاً مستفيضًا ذائعًا، فإذا لم ينقل مثله دلّ على فساد أصله.[تخريج الفروع على الأصول، لأبي المناقب (ص٦٣)].
٢- ألا يخالف حديث الآحاد القياس حال كون راويه غير فقيه. [الفصول، للجصاص، (٣/١٣٦)].
٣- ألا يخالف حديث الآحاد الأصول العامة حال كون راويه غير فقيه. [المرجع السابق، (٣/١٢٩- ١٣٩)].
٤- ألا يعمل الراوي بخلاف الحديث الذي رواه. [المرجع السابق، (٣/٢٠٣)].
هذا وقد تناول العلماء في بقية المذاهب رأي الحنفية بالمناقشة والتفنيد، وطال بينهم الحجاج في هذه المسائل الأصولية والضوابط العلمية للاستنباط.
ولا يعني هذا ازورارًا من الحنفية وإمامهم عن الحديث وحجيته في مقابل الرأي؛ فقد نقل عن بعض الحنفية ما نصه: «إذا صح الحديث، وكان على خلاف المذهب؛ عُمل بالحديث ويكون ذلك مذهبه، ولا يخرج مقلده عن كونه حنفيًا بالعمل به؛ فقد صح عن أبي حنيفة أنه قال: «إذا صح الحديث فهو مذهبي». [حاشية ابن عابدين، (١/١٦٧)].

مذهب الإمام الشافعي:

فإذا تحولنا إلى إمام علم الأصول وواضع لبناته الأولى؛ فإننا نجد الإمام الشافعي رحمه الله ينبّه على أن العلم طبقات:
الأولى: الكتاب والسنة.

والثانية: الإجماع فيما ليس كتاب ولا سنة.

الثالثة: أن يقول صحابي فلا يُعلم له مخالف من الصحابة.

الرابعة: اختلاف الصحابة.

الخامسة: القياس. [الرسالة، للشافعي، (ص٥٩٦ - ٥٩٨) بتصرف].

وبشأن أقاويل الصحابة نجده يفصّل في الرسالة فيقول: «أقاويل الصحابة إذا تفرّقوا فيها نصير إلى ما وافق الكتاب أو السنة، أو الإجماع، أو كان أصح في القياس، وإذا قال الواحد منهم القول لا يُحفظ عن غيره منهم فيه له موافقة ولا خلاف صرت إلى اتباع قوله إذا لم أجد كتابًا ولا سُنة ولا إجماعًا ولا شيئًا في معناه، يحكم له بحكمه، أو وجد معه قياس». [الرسالة، للشافعي، (ص٥٠٣) وما بعدها].

السادسة: ترك الاستحسان:

ووجدنا الشافعي ينكر الاستحسان ويرده ويقول: «من استحسن فقد شرَّع». [المستصفى، للغزالي، (ص١٧١)].

السابعة: قبول الحديث المرسل إذا كان من رواية كبار التابعين ما لم يعارضه مُسند: كما وجدناه يقبل المرسل- وهو من قسم الضعيف- ولكن بشروط فصّلها في رسالته، وحاصلها:

١- أن يقوّي المرسلَ حديثٌ مسند متصل في معناه، وعندها تكون الحجة للمسند دون المرسل.

٢- أن يقوى المرسل بمثله بشرط قبول أهل العلم له وأخذهم به.

٣- أن يوافق المرسل قول بعض الصحابة؛ فإنه يكون في معنى الرفع.

٤- أن يتلقاه أهل العلم بالقبول فيفتي به جماعة منهم. [الرسالة، (ص٤٦٢) وما بعدها].

ومع ذلك إذا عارضه مسند في موضوعه قدم المسند عليه.

الثامنة: ترك قاعدة سد الذرائع:

وللشافعي موقف من الذرائع؛ فهو لا يقول بها، ويقول: «لا أتهم أحدًا».

التاسعة: الأخذ بالمصالح المرسلة بشروط: ويتفق مع من قال بالمصالح المرسلة بشرط ملاءمتها للمصالح المعتبرة المشهود لها بالأصول. [البحر المحيط، للزركشي، (٧٨/٦)].

مذهب الإمام أحمد بن حنبل:

فإذا انتهى الأمر إلى إمام أهل السنة والجماعة اتضح تأثره بمنهج شيخه الشافعي وأخذه بأصوله، ويظهر جليًا أن الإمام أحمد:

١- يعظِّم النصوص ويقدّمها.

٢- ويثني بالعناية بأقاويل الصحابة وفتاويهم، وبها يفتي، فإذا اختلفوا تخير من أقوالهم ما كان أقربها وأشبهها بالكتاب والسنة، ولم يخرج عن أقوالهم.

٣- وكان يأخذ بالضعيف الذي يسميه غيره بالحسن، ويقدّمه على الرأي والقياس.

٤- وكان يرى القياس آخر هذه الأصول رتبة؛ فلا يصير إليه إلا إذا لم يجد في الباب نصًا، ولا قولاً لصاحب، ولا أثرًا مرسلاً، ولا أثرًا ضعيفًا، فهذا عنده موضع ضرورة إذن.[إعلام الموقعين، لابن القيم، (١/ ٣٠-٣٢)].

٥- الاستصحاب والاستصلاح:

وكثيرًا ما ظهر في فقه مدرسته أثر الاستصحاب في الأحكام، وجاء مذهبه ثانيًا بعد مذهب المالكية في العمل بالاستصلاح. [أسباب اختلاف الفقهاء، لعلي الخفيف، (ص٢٦٩)].

٦- وظهر العمل بسد الذرائع جليًا في فتاوى الإمام؛ فحرّم العينة والبيوع التي يتوصل بها إلى الحرام؛ فلا يصح بيع العنب لمن يعصره خمرًا، ولا يصح بيع الدار لمن يستعملها استعمالاً غير شرعي.

وللحديث بقية إن شاء الله في العدد القادم، والحمد لله رب العالمين.

شبهات أعداء الإسلام حول السنة

الحلقة الأولى

إعداد/ أسامة سليمان

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده:

فإن الشريعة الإسلامية ترجع إلى أصلين شريفين؛ هما: القرآن والسنة، فالقرآن أصل الدين ومنبع الصراط المستقيم، ودستور الأمة، ومعجزة النبي الأمي، والسنة بيان للقرآن، وشرح لأحكامه، وبسط لأصوله، وإتمام لتشريعاته، وتقييد لمطلقه، والسنة بعضها بوحي جليّ عن طريق جبريل عليه السلام، وبعضها بالإلهام لخير الأنام الذي لا ينطق عن الهوى، وبعضها إقرار من رب العالمين لاجتهاد سيد المرسلين.

وقد عُنيت الأمة ببلاغ هذين الأصلين عناية فائقة، لم تعرف في أمة قبلها، ففضلاً عن حفظ الصدور كان حفظ السطور للقرآن والسنة.

بيد أن أعداء الإسلام من قديم الزمان يُضمِرون له الكيد، وينسجون الخيوط، ويدبّرون المؤامرات لإسقاط دولته وذهاب نظامه، عن طريق وسائل متعددة، وأساليب مفضوحة.

وللتشكيك في السنة النبوية المطهرة راح هؤلاء الأعداء وأذنابهم يشكّكون المسلمين في الأصل الثاني من مصادر التشريع الحنيف، وهي السنة النبوية؛ تارة عن طريق الطعن في ثبوتها، وتارة عن طريق إيهام تعارض الروايات لتظهر النصوص بمظهر السطحية والسذاجة الفكرية، ومخالفة الواقع المحسوس أو العقل الصريح والنقل الصريح، وحمل هذا اللواء قديمًا أعداء السنة النبوية كالنظام ومن على شاكلته، ثم حمل هذا اللواء في العصر الحديث المستشرقون والقساوسة والعلمانيون، وراحوا ينفخون في طعون سلفهم وزادوا عليها، وأخذها بعض الغربيين فرددوها، وكان بعضهم أكثر عصبية وأشد هوًى من سابقيه، لكن الله سبحانه قيّض للسنة من نافح عنها، فرد عنها كيد الكائدين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وفيما يلي عرض لبعض الشبهات التي ردّدها أعداء السنة مع ردود علماء أهل السنة على تلك الشبهات التي هي أوهى من خيوط العنكبوت.

الشبهة الأولى: أن القرآن حوى كل شيء من أحكام الدين:

واحتجوا لذلك بقول الله سبحانه: «مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ» [الأنعام: ٣٨]، وقوله جل شانه: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ» [النحل: ٨٩]، وذلك يدل على أن الكتاب حوى كل شيء من أحكام الدين، فلا نحتاج إلى السنة التبيينية، وإلا فلا معنى لتلك الآيات، ولزوم الاضطراب في قوله سبحانه، وهذا محال.

وللجواب عن هذه الشبهة:

قال أهل العلم: إن المراد بالكتاب في الآية الأولى اللوح المحفوظ الذي كُتب فيه كل شيء، واشتمل على جميع أحوال المخلوقات؛ كبيرها وصغيرها، جليلها ودقيقها، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: «جفَّ القلمُ بما هو كائن إلى يوم القيامة» رواه البخاري.

ولذا جاءت هذه الآية الكريمة بعد قوله سبحانه: «وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ» [الأنعام: ٣٨]، فالمثلية في الآيات تعني التشابه بين الدواب والبشر في الأعمار، والأرزاق، والسعادة والشقاء، فكل ذلك في اللوح المحفوظ.

والبيان في الآية الثانية يراد به بيان بطريق النص، أو بيان طريق الإحالة على السنة التي اعتبرها الشارع الحكيم دليلاً وحجة على خلقه، فالقرآن تبيان لكل شيء؛ بمعنى أنه بيّن أحوال الدين وعقائده، ومما بيّنه القرآن الرد والإحالة إلى السنة التي هي كالقرآن في وجوب العمل بها، والامتثال لأوامرها ونواهيها ، بل إن القرآن قد بيّن أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله هي طاعة له سبحانه، والأخذ بسنته فرض على كل مكلف، فقال جل شانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» [النساء: ٥٩]، وقال سبحانه: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ» [النساء: ٦٤]، وقال عز وجل: «وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا» [النور: ٥٤]، وقال سبحانه: «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» [النور: ٥٦]، وقال عز وجل: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»

[النور: ٦٣].

وفي هذا قال الشافعي رحمه الله: «فجماع ما أبان الله لخلقه في كتابه مما تعبّدهم به بما مضى في حكمه جل ثناؤه من وجوه:

١- منها ما أبانه لخلقه نصًا، مثل جملة فرائضه في أن عليهم صلاة وزكاة وحجًا وصومًا، وأنه حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وحرّم الزنا والخمر، وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وبيّن لهم كيفية الوضوء.

٢- ومنها ما أحكم فرضه بكتابه، مثل عدد الصلوات، والزكاة ووقتها، وغير ذلك من فرائضه التي أنزل في كتابه.

٣- ومنها ما سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس لله فيه حكم ونص، وقد فرض الله في كتابه طاعة رسوله، والانتهاء إلى حكمه، فمن قبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فبفرض الله قَبِل.

٤- ومنها ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه. «الرسالة» [ص٢٠].

وهناك وجه ثان للعلماء في تفسير هذه الآية: وهو أن الكتاب لم يُفرِّط فيه شيء من أمور الدين على سبيل الإجمال، فقد بيّن كليات الشريعة دون النص على جزئياتها وتفاصيلها، فتمام البيان القرآن والسنة يقول سبحانه: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» [النحل: ٤٤].

الشبهة الثانية: إن الله تكفل بحفظ القرآن دون السنة:

وذلك في قوله سبحانه: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» [الحجر: ٩].

والجواب: إن الله قد تكفل بحفظ الشريعة كلها؛ كتابًا وسُنة، يقول جل شأنه: «وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» [الصف: ٨]، ونور الله شرعه ودينه الذي ارتضاه للعباد وضمّنه مصالحهم.

وللعلماء في قوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» [الحجر: ٩] عدة أقوال؛ منها:

١- أن ضمير الغَيْبَة في الآية يُقصد به النبي صلى الله عليه وسلم، وعندئذ تسقط شبهتهم من أصلها.

٢- إن فُسِّر ضمير الغَيْبة بالقرآن والسنة معًا وهو الأقرب للصواب، فإن شبهتهم تسقط أيضًا.

٣- أما إن فُسِّر ضمير الغيبة بالقرآن فقط، فلا نُسلِّم لهم بأن الآية فيها حصرٌ لما حفظه الله، فقد حفظ الله نبيه صلى الله عليه وسلم من القتل والكيد، وحفظ العرش، وحفظ السماوات والأرض أن تزولا، فالآية ليس معناها الحصر الحقيقي، فحفظ القرآن لا يعني أنه هو المحفوظ فقط، بل هناك أشياء أخرى حفظها رب العالمين، وتقديم الجار والمجرور في الآية لمناسبة رؤوس الآي فقط، وليس للحصر.

وأخيرًا: إن حفظ القرآن متوقف على حفظ السنة، ومستلزم له؛ لأنها تفصّل مجمله، وتفسّر مشكله، وتوضِّح مبهمه، وتقيّد مطلقه، وتبسط مختصره، وتدفع عنه عبث العابثين ولهو اللاهين. [راجع دفاع عن السنة لأبي شهبة ص٤٠٤].

قال الشافعي رحمه الله: «ولأن الله تعالى حفظ سنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما حفظ القرآن، وجعلها حصنه ودرعه، وحارسه وشارحه، كانت الشجى في حلوق الملحدين، والقذى في عيون المتزندقين، والسيف القاطع لشُبَه المنافقين وتشكيك الكافرين».

الشبهة الثالثة: أحاديث واهية يتعللون بها إلى عدم حجية السنة:

هناك بعض الأحاديث الواهية التي نسبوها للنبي صلى الله عليه وسلم ليتوسلوا بها إلى عدم حجية السنة، منها:

أنه صلى الله عليه وسلم دعى اليهود فسألهم فحدثوه حتى كذبوا على عيسى عليه السلام، فصعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر، فخطب الناس، وقال: «إن الحديث سيفشو عني، فما أتاكم يوافق القرآن: فهو حق، وما أتاكم عني يخالف القرآن، فليس مني». فضلاً عن روايات أخرى تدور كلها حول هذا المعنى .

والجواب: أن علماء السلف حكموا أن هذه الروايات جميعًا ضعيفة منقطعة... ورواة بعضها غير ثقات أو مجهولون، وقال بعض علماء السلف: إن عرضنا هذا الأحاديث على كتاب الله وجدناها مخالفة له لأننا لم نجد في كتاب الله أن نعرض أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم على القرآن، بل وجدنا في القرآن الأمر بطاعته والتأسي به، والتحذير من مخالفة أمره، فرجع من قال بتلك النصوص على نفسه بالبطلان والخزي والكذب البيّن الواضح.

ومما يبين عدم صحة هذه النصوص ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، يقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه» [أبو داود وصححه الألباني].

قال الشافعي رحمه الله: «قد ضيّق رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس أن يردّوا أمره، وذلك بفرض الله عليهم اتباع أوامره واجتناب نواهيه، قال عز وجل: «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» [النور: ٥٦].

وللحديث بقية إن شاء الله.

سارع أخي المسلم وأختي المسلمة

بالمشاركة بجزء من مالك ومن الزكوات أو الصدقات لنشر التوحيد من خلال المشاركة في الأعمال التالية:

- طباعة كتيب يوزع مع مجلة التوحيد مجانا تتكلف النسخة خمسة وسبعين قرشا .. يطبع من كل كتيب مائة وخمسون ألف نسخة.

- نشر تراث الجماعة من خلال طبع المجلة وتجليد أعداد السنة في مجلد واحد وذلك لعمل كرتونة كاملة ٤٠ سنة من المجلة.

- دعم مشروع المليون نسخة من مجلة التوحيد - نسخة من المجلة لكل خطيب من خطباء الأوقاف والأزهر تصله على عنوانه.

نحن بانتظاركم .. يمكنكم المشاركة ودعم ذلك بعمل حوالة أو شيك مصرفي على بنك فيصل الإسلامي.

.. فرع القاهرة حساب رقم ١٩١٥٩٠ باسم مجلة التوحيد.


الآن
مفاجأة سارة
التوحيد
أوسع المجلات الإسلامية انتشاراً في العالم
٤٠ مجلداً
اطلبوها من باعة الصحف والمكتبات
موسوعة التوحيد ببلاش
بشرى سارة لإدارات الدعوة في فروع أنصار السنة بأنحاء الجمهورية.
الموسوعة العلمية والمكتبة الإسلامية في شتى العلوم ، أربعون عاماً من مجلة التوحيد .
أكثر من ٨٠٠٠ بحث في كل العلوم الشرعية من مجلدات مجلة التوحيد.
استلم الموسوعة ببلاش بدون مُقدَّم ؛ فقط ادفع ٧٥ جنيهاً بعد الاستلام على عشرة أشهر .
من يرغب في اقتنائها فعليه التقدم بطلب للحصول عليها من إدارة الدعوة بالفرع التابع له
أو من خلال قسم الاشتراكات بمجلة التوحيد بطلب مُزَكًى من الفرع .
علماً بأن نموذج طلب الشراء والإقرار المرفق به من قبل الفرع موجود على موقع أنصار السنة
وصفحة الفيسبوك الخاصة بكل من رئيس التحرير و صفحة مجلة التوحيد .
هدية لكل من يرغب في اقتناء كرتونة المجلدات عبارة عن فهرس عام للمجلة وفهرس موضوعي يسلم بعد طبعه للفروع والمشتركين .
ومفاجأة أخرى
المجلد الجديد لعام ١٤٣٣ هـ
موجود الآن؛ سارع بالحصول عليه بـ ٢٥ جنيها فقط
التوحيد
١٤٣٣
١٤٣٣
23936517